مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في القطر
عشرون مجموا العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الخامس — السنة الخامسة والثلاثون — رجب سنة ١٣٨٣ هـ — ديسمبر ١٩٦٣ م

الأدب بين الصعود إليه والهبوط به

بقلم : أحمد حسن الزيات

يتحدث بعض السادة الأدباء في العهد الاشتراكي عن مكان الأدب من الحياة ، أيظل في المصعد الأعلى من السماء ليرتفع إليه من يحبه ، أم ينزل إلى المهبط الأدنى من الأرض ليتناوله كل من يريده ؟

ولا أدري على وجه اليقين ماذا يريدون بصعود الأدب وهبوطه ، إن كان القائلون بالصعود يريدون أن يرتفع الأدب عن حياة العامة فلا يتخذ من حوادثها قصصه وموضوعاته ، ولا ينتزع من مشاهدها صوره وتصوراته ، فقولهم باطل ، لأنهم يحصرون عبيره ونوره في ناحية من نواحي الحياة لا هي أجل ولا هي أفضل . وإن كان القائلون بالهبوط يريدون به أن يجرد الأدب من قواعده وخصائصه وعبقرياته ليفهمه الغبي والبليد والساذج فقولهم كذلك باطل ، لأنهم يخرجونه من طبيعته وحقيقته ليكون عبثا من العبث لا يوحي ولا يمتع ولا يرفع. إن الأدب فن ، والفن في كل مكان هو الفن ما دام يعبر عن مشاعر النفس ومشاهد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الطبيعة ووسائل العيش تعبيره الحى القوى الصادق بالكلمة أو بالصورة أو بالنغمة أو بالمثال ، ولا فرق فى ذلك بين أن يكون موضوعه علبة الجواهر فى قصر ملك أو صينية البطاطس فى دار سوقة ، المهم أن يظهر فى الصورة المختارة روح الفنان وشعور الإنسان وجمال الحقيقة .

كان كتاب الإغريق ومن تبعهم من كتاب الفرنج الاتباعيين يقصرون موضوع المأساة وأبطالها على حياة السراة والملوك ، ويرون أن جرائم هؤلاء ومصائبهم أفضل فى النفس وأشغل للقلب من جرائم السوقة ومصائب العامة .

فلما ابتذلت أفنية الملوك وعلت كلمة الشعوب وغلب نظام الديمقراطية ، أصغر الناس الفجائع فى القصور وأكبروها فى الأكواخ ، وجاء الأدباء الابتداعيون فاستحدثوا الدرامة ونزلوا بها إلى سواد الشعب فصوروا حياته كما هى ، ومثلوا أبطالهم له كما هم .

وغضب الاتباعيون لكرامة الأدب فنشبت بين الفريقين حرب شعواء كانت معركتها الفاصلة فى مسرح (الكوميدى فرانسيز) ليلة مثلت مسرحية (هرناني) لفكتور هوجو وهى درامة شعرية بطلها قاطع طريق .

وكان الخلاف بين الارستقراطيين والديمقراطيين قائما على الموضوع والطبقة لا على الوضع والتطبيق . أما الفن فى ذاته فقد ظل فى علوه ودنوه بارعا رائعا عند هؤلاء وأولئك .

وكان ابن الرومى شاعراً شعبيا يخالط الدهماء والغوغاء ويلابس الصناع والباعة ، فيهبط بشعره إلى أن يقول فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به
يدحو الرقاقة مثل اللمح للبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

وإلى أن يقول فى صانع الزلابية :

ومستقر على كرسيه تعب
روحى الفداء له من منصب نصب
رأيته سحراً يقلى زلابية
فى رقة النشر والتجريف كالقصب
كأنما زيته المقلى حين بدا
كالكيمياء التى قالوا ولم تصب
يلقى العجين لجينا من أنامله
فيستحيل شبابيكا من الذهب

ثم يصعد بشعره إلى أن يقول فى وصف الشمس قبيل الغروب ، وهو وصف لا تجد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

له نظيرا فى الأدب العربى ولا فيما نعرف من الآداب الأخرى :

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت
على الأفق الغربى ورسا مزعزعا
وودعت الدنيا لتقضى نحبها
وشمّر باقى عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوار وهى مريضة
وقد وضعت خداً إلى الأرض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف
توجع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى
كما اغرورقت عين الشجى لتدمعا
يراعيها صوراً إليها روانيا
ويلحظن ألحاظا من الشجو خضعا
وبين إغضاء الفراق عليهما
كأنهما خلا صفاء تودعا
وقد هربت فى خضرة الروض صفرة
من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا
وأزكى نسيم الروض ريعان ظله
وغنى مغنى الطير فيه وسجعا
وغرد ربعى الذباب خلاله
كما حشحث الشوان صنجا مشرعا
فكانت أرانين الذباب هناكمو
على شدوات الطير ضربا موقعا

فأنت ترى أن الشاعر قد ارتفع بشعوره إلى أسمى مجالى الطبيعة ، ثم انخفض به إلى أدنى مشاغل الناس ، ولكنه بقى فى الحالين فنانا صادق الحس بارع الوصف رائق الأسلوب .

وقل مثل ذلك فى ابن المعتز الشاعر الخليفة وابن الحجاج أو ابن العبر الشاعر الصعلوك . فإن ابن المعتز كان يؤلف صوره من ترف الملك ، وابن الحجاج أو ابن العبر كان يؤلف صوره من مباذل السوق ؛ ولكن الفن كان عند الرجلين واحداً ، يختلف فى الخامة ولا يختلف فى الصنعة ، ويتفاوت فى الطبقة ولا يتفاوت فى القيمة . وهذا ما نفهم من صعود الفن وهبوطه : ننزل به إلى الطبقة العامة والحياة العامة فنجد له من الطفولة المعذبة والشيخوخة العاجزة والزمانة المعدمة ، والكرم فى الأخلاق ، والشهامة فى البؤس ، والإيثار فى الخصاصة ، مواقف قوية التأثير شديدة الروعة . فإذا وصفناها أو حللناها أحسها العامى أبلغ الإحساس ، وتأثر بها أشد التأثر ، وشعر فى الوقت نفسه بأن فى هذا الأدب الذى يصور نفسه ويصف دنياه قوة خفية ترفعه إلى فوق وتدفعه إلى أمام .

أما أن نمسخ له صور الفن فنكتب له الأدب بقلم (العرضحالجى) ، ونعزف له الموسيقى بشبابة الراعى ونرسم له الجبل والمحمل بفرشة النقاش فذلك تقدم إلى الخلف وارتفاع إلى الأسفل . إن رسالة الفنون الرفيعة أن تجمل الحياة وتهذب الحضارة وتسمو بالإنسان . وإذا كانت

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

براهين الإيمان

من طريق براهين الشكوك

للأستاذ عباس محمود العقاد

ترد في على الدوام رسائل صريحة من الشباب المثقف الحائر في شئون العقيدة .

وموضع الصراحة في هذه الرسائل أن أصحابها يعربون في غير مواربة عن شكوكهم في مسائل الدين : من الإيمان بالله إلى صلاح بعض الفرائض والعبادات .

ولست أتشاءم بهذه الصراحة ، لأنها دالة على أمور كثيرة تدعو إلى التفاؤل وحسن الأمل في الضمائر المتفتحة للمعرفة وسلامة الإدراك .

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

الفنون الآلية قد اخترعت لتخدم الجسد ، فإن الفنون الأدبية قد اصطنعت لتخدم الروح ، فهي إذن ضرورة وحاجة لا كمال ومتعة . ولا يقضي لها أن تؤدي هذه الرسالة إلا إذ احتفظت بالجزء الإلهي الذي يقرب الأدب من الدين ويربط الأرض بالسماء ويدني الإنسان من الملك . وهذا الاتصال الروحي أو الإلهام الذهني أو الاستعداد الفني متى أوتيه إنسان سما بملكاته على الناس فلا يفكر تفكيرهم ولا يشعر شعورهم ولا يعبر تعبيرهم . ولو أكرهناه على أن يتدلى إليهم ويندمج فيهم لنفر نفور الجنس الغريب وتميز تميز الكائن المستقل .

ولا أدري كيف يستطيع الفنان أن يرفع النفوس إلى مراقي الكمال إذا لم يرتفع هو عن حقارة الحياة الدنيا ، ويصور الناس المثل العليا من الجمال والفضيلة ، فيرتفع الشعب إلى سمائه ، بدل أن ينسف هو إلى حضيضه ودمائه ؟ .

فلنطمئن إذن على أن الدعوة إلى ابتذال الفن لن تجد لها سميعا ، وإذا وجدته فلن يكون إلا من الأدعياء الذين لا تساعدهم كفايتهم ولا ثقافتهم على السمو إلى الفن فيحاولون أن ينزلوه إليهم ، وهو إن نزل لا يكون فناً ، وإنما يكون زبداً لا يلبث أن يذهب ، وظاهرة لا تمكث إلا ريثما تغيب ! .

أحمد حسن الزيات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

براهين الإيمان

من طريق براهين الشكوك

للأستاذ عباس محمود العقاد

ترد في على الدوام رسائل صريحة من الشباب المثقف الحائر في شئون العقيدة .

وموضع الصراحة في هذه الرسائل أن أصحابها يعربون في غير مواربة عن شكوكهم في مسائل الدين : من الإيمان بالله إلى صلاح بعض الفرائض والعبادات .

ولست أتشاءم بهذه الصراحة ، لأنها دالة على أمور كثيرة تدعو إلى التفاؤل وحسن الأمل في الضمائر المتفتحة للمعرفة وسلامة الإدراك .

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

الفنون الآلية قد اخترعت لتخدم الجسد ، فإن الفنون الأدبية قد اصطنعت لتخدم الروح ، فهي إذن ضرورة وحاجة لا كمال ومتعة . ولا يقضي لها أن تؤدي هذه الرسالة إلا إذ احتفظت بالجزء الإلهي الذي يقرب الأدب من الدين ويربط الأرض بالسماء ويدني الإنسان من الملك . وهذا الاتصال الروحي أو الإلهام الذهني أو الاستعداد الفني متى أوتيه إنسان سما بملكاته على الناس فلا يفكر تفكيرهم ولا يشعر شعورهم ولا يعبر تعبيرهم . ولو أكرهناه على أن يتدلى إليهم ويندمج فيهم لنفر نفور الجنس الغريب وتميز تميز الكائن المستقل .

ولا أدري كيف يستطيع الفنان أن يرفع النفوس إلى مراقي الكمال إذا لم يرتفع هو عن حقارة الحياة الدنيا ، ويصور الناس المثل العليا من الجمال والفضيلة ، فيرتفع الشعب إلى سمائه ، بدل أن ينسف هو إلى حضيضه ودمائه ؟ .

فلنطمئن إذن على أن الدعوة إلى ابتذال الفن لن تجد لها سميعا ، وإذا وجدته فلن يكون إلا من الأدعياء الذين لا تساعدهم كفايتهم ولا ثقافتهم على السمو إلى الفن فيحاولون أن ينزلوه إليهم ، وهو إن نزل لا يكون فناً ، وإنما يكون زبداً لا يلبث أن يذهب ، وظاهرة لا تمكث إلا ريثما تغيب ! .

أحمد حسن الزيات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تلك صراحة تدل على تعقل شبابنا لعقائدهم الروحية ، وعلى استعدادهم للانتقال فيها من حالة التقليد إلى حالة التبصر والاجتهاد .

وتدل - مع هذا - على امتعاض نفوسهم من حالة الشك والحيرة ، بدلا من التذرع بها إلى الهجوم على « الإباحية الأخلاقية » واستحلال ما لا يحل فى الدين ولا فى عرف التدين الذى تقوم عليه أسس الآداب الإنسانية .

وتدل ، بعد هـ - ذا وذاك ، على أدب فى الطبع يعصمه من داء الغرور ويلهمه أن يطلب المزيد من العلم حيثما تطلع إليه ، ويندر فى المصابين بداء الغرور من يحسب أنه بحاجة إلى علم فى مسائل الحياة الكبرى غير الذى يهجس بخاطره ويقع منـــه موقع القبول . بغير بحث ولا محاولة للمزيد من الفهم والإيضاح .

وبين الرسائل التى وردتنى أخيراً من هذا القبيل رسالتان إحداهما بتوقيع (م . أ . زيدان) والأخرى يرجو صاحبها أن أومئ إليه بحرفى (س . ع) إذا استجبت لرجائه وكتبت فى مجلة « الأزهر » عن موضوع سؤاله .

يقول صاحب الرسالة الأولى : « تقدمت للالتحاق بكلية الطيران لأحقق أمنيتى فى أن أكون أحد أفراد القوات المسلحة ونجحت فى الكشف الطبى مع القلائل الذين ينجون منه فى قومسيون القوات الجوية ، ثم رسبت أخيراً فى كشف الهيئة التى لم يرسب فيها أحد إلا أنا ... أتدرى لماذا ؟ لأن قلبى على اليمين .. ! » .

ويختم صاحب الرسالة كلامه متسائلا : ألست معى أن الله يتسبب فى عـذاب البشر ؟ ... أستحلفكم بالله أن تقنعونى بالآية التى تقول : « عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » .

أما صاحب الرسالة الثانية (س . ع) فسؤاله عن معرفة المؤمنين بالله لم لا يدركونها بظهور الله لهم علانية بدلا من هذا التخبط من قديم الزمن فى ظلمات الجهل ومنازعات الغضب والتعصب بين المنكرين والمؤمنين ، وبين المؤمنين أنفسهم من أنصار كل دين ، بل من أنصار الدين الواحد على اختلاف المذاهب والتفاسير ... » .

* * *

ولقد كشفت لى تجاربى فى دراسة الشكوك الدينية عن طريق قريب إلى الإيمان لا يطول النظر فيه كما يطول النظر فى البراهين الفلسفية التى يقوم عليها العلم بوجود الله :

كشفت لى هذه التجارب عن يقين لا أرتاب فيه ، وهو اليقين بسهولة الخلاص من براهين الشكوك الدينية أو براهين

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإلحاد ؛ لأن ظهور البطلان فى هذه البراهين أيسر من البحث فى براهين الفلاسفة على تحقيق وجود الله : وهى براهين المنطق التى لا تصبر عليها جميع العقول .

فمن اليسير أن نفهم - بعد قليل من البحث - أن إنكار وجود الخالق لشيوع النقص والعذاب فى عالم المخلوقات هو إنكار ضعيف السند ، غير قابل للتصور الصحيح عند إمعان النظر فيه

وأيسر من ذلك إظهار البطلان فى تحقيق معرفة الله برؤية العيان ، أو ما هو من قبيل رؤية العيان .

فإذا كان وجود الخالق يستلزم خلو الخلق من النقص والعذاب فلنجتهد فى تصور العالم على هذه الصورة فلا نلبث أن نفهم أنها هى المستحيل بعينه على كل فرض من الفروض :

أولا : كيف يمكن أن يكون المخلوق كاملا كمال الخالق الذى لا يعـــوزه شىء من الأشياء .

ذلك هو المستحيل الذى لا تتعلق به إرادة الله ، ولا يجوز لنا أن نتطلبه من قدرة الله ؛ لأن قدرة الله التى لا نهاية لها هى التى توجب أن يكون المخلوق المحدود بزمانه ومكانه دون ذلك ، وتمنع أن يوجد فى التصور إله كامل مخلوق إلى جانب الإله الكامل الخالق لجميع الأشياء .

ولنتعسف التصور - إن استطعنا - فنقدر أن المخلوقات يمكن أن توجد ناقصة وأن تكون مع نقصها سعيدة لا ترجـــو شيئاً ولا يفوتها رجاء توجوه إذا جاز هذا فى حق الكائن السعيد الظافر بكل ما يريد .

فهل توجد هذه المخلوقات السعيدة دفعة واحدة بلا ولادة ولا نمو ولا وقوف بالنمو عند حد محدود .

وإذا وجدت هذه المخلوقات السعيدة فهل تكون سعادتها من نوع واحد لا فرق فيه بين هذا المخلوق وذلك المخلوق ، كأنها نسخة مكررة فى جميع الصفات والأحوال ؟ وهل تتم لها سعادتها بغير مجهود منها وبغير سبب من بواعث نفوسها وبغير فرق بين من ولد بالأمس ومن يتبعه فى الميلاد .

وهل يتبعه ذلك التابع فى الميلاد صغيراً يشعر بالنقص أو لا يشعر به ولا يشعر بما عداه .

أما إذا تفرقت هذه المخلوقات فى أنواع السعادة فكيف تتفرق دون أن يكون هذا المخـــلوق مستمتعاً بمزية ليست للآخرين من المخلوقات .

وهـــل تكون المخلوقات جيلا واحداً ، ثم يكون هذا الانفـــراد بالخلق إنصافا للأجيال التى تظهر بعد العدم على سنة التتابع بين الوالدين والمولودين .

إن خطأ الشك الذى يقوم على افتراض

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

العالم على صورة من هذه الصور هو أظهر الأخطاء بعد النظر اليسير .

فكمال المخلوقات لا يدل على وجود الخالق المنفرد بالكمال المطلق الذى لا يتكرر ولا يقبل التكرار .

بل نقص المخلوقات هو الذى يدل على ذلك الكمال على كل وجه قابل للتصور والتقدير .

وإذا تصورنا الخلق بهذه الصورة التى لا صورة غيرها فى الإمكان فمن اليسير أن نفهم كيف نرجو شيئاً لا يتحقق وكيف نجهل ما نرجوه ولا ندرى بكل ما يضمره الغيب لنا من عواقب هذا الرجاء .

ومستحلفنى السيد (م . أ . زيدان) أن أقنعه بالآية التى تقول : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ... »

فلا أرانى بحاجة إلى مثل بعيد عنى ولا عن الواقعة التى رواها صاحب الرسالة عن نفسه وكانت سبباً لشكواه من المقادير :

لقد أردت فى مطلع شبابى كما أراد السيد زيدان أن أنجح فى امتحان كامتحانه لإتمام الدراسة بالديار الأوربية ، وكانت الجامعة المصرية فى نشأتها الأولى هى التى نظمت ذلك الامتحان على يد رئيسها سعد زغلول لتخريج الأساتذة المرشحين للتدريس فيها بعد عودتهم من الجامعات الفرنسية والانجليزية وقدفاتنى النجاح فى الامتحان لسبب من الأسباب الشكلية كما فات السيد زيدان ، فأظلمت الدنيا فى عينى يوم ذاك ونعيت على الدنيا كلها خيبة الرجاء ، وظننت أنه هو الرجاء الأول والأخير فى الحياة ، ولكننى اليوم بحمد الله غير نادم على ما فات وغير عاتب على المقادير . بل قد علمت بعد قليل أننى لم أعتب على سعد زغلول ولم أحمله جريرة الخيبة فيما رجوت ؛ وكنت فى مقدمة المدافعين عن عمله بالجامعة المصرية يوم أنكره عليه المنكرون غير منصفين ولا متحرجين .

• • •

أما الشك فى وجود الله لأنه لا يظهر لنا عيانا فهو أضعف الشكوك التى تساور العقول فى أمر الأديان السماوية وفى أمر كل دين يؤمن فيه المعتقد برب معبود .

هل نريدها معرفة إنسانية أو نريدها معرفة من طبيعة غير طبيعة الإنسان فيما يعرفه ويتعرف عليه من الأشياء .

إننا لا نعرف أوضح شيء فى عالم المحسوس لأنه يرينا نفسه جلياً واضحاً للعيان .

وهذه الشمس لا ترى العين شيئا أوضح منها ولا يزال التعرف عليها حتى اليوم مبدئيا من أوله كأننا نراها لأول مرة فى عصر العلوم والكشوف .

وليس بالمعقول - إنسانيا - أن تكون حقيقة الحقائق الكبرى أقل أسرارا أمام العارفين والمتعرفين من أقرب المحسوسات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إلى الوضـــوح بغير أسرار ولا بقية تبقى للتعرف عليها بعد نظر العيان .

ولكننا نعتسف التصور مرة أخرى ونحاول أن نتصور كيف تتأتى المعرفة بالله عيانا لجميع المخلوقات فى جميع الأوقات .

فهل يتجلى الله لعباده مرة فى القدم ثم ينتقل هذا التجلى بالرواية والحكاية إلى الخلفاء والأعقاب ؟

وهل ينقله من رأى الله عيانا إلى خلفائهم وأعقابهم نقلا يتساوى فيه الخبر ويتساوى فيه اليقين بالرواية على مثال لا يتطرق إليه الشك والخلاف ؟ وإذا حدث هذا فمن أين لنا أن الخلفاء والأعقاب تقبل هذه المعرفة على صورتها المثلى ولا تشك فيها كما يشك المنكرون للأنبياء والمرسلين؟ .

فإن لم يستقم هذا التصور فى العقول فهل يستقيم فيها أن يتجلى الله لكل جيل فى زمان بعد زمان ! . وهل يغنى التجلى فى الجيل بعد الجيل عن التجلى مرة بعد مرة ، بعد ألف مرة ، لكل مولود جديد فى كل جيل جديد .

وإذا تكرر هذا التجلى خاصا بكل مولود ، فهل تتساوى المخلوقات فى كنه الإيمان وفى درجة الإيمان بل فى كنه العيان ودرجة العيان ؟

وإذا أمكن أن يتكرر العـــلم بحقيقة الحقائق على السواء وعلى هذا المقال فاذا بقى للنفوس والضمائر من الفارق بينها وبين الآلات الصماء فى تعليق الصور وإدراك المعـــرفة واجتهاد الضمائر والعقول ؟ .

إن إيمانا كهذا لا تختلف خصائصه عن خصائص الأجسام المادية التى لا معنى فيها لعقيدة من العقائد ولا لاتفاق أو اختلاف على هذا الدين أو ذاك

ونكتفى بما تقدم لتقرير الفكرة التى أردنا أن نقررها بهذا المقال . ويجمل الرأى فيها أن الشك فى براهين الإلحاد أيسر أمام العقل من براهين الشك فى الإيمان .

فهاتان حجتان من أشيع الحجج التى نسمعها من المتشككين اعتراضا على الدين : حجة الألم فى الدنيا وحجة الاستدلال على وجود الله برؤية العيان نوازن بينهما وبين ما يقابلهما فلا نطلب من المعترضين أن يذهبوا بعيدا فى التفكير إذا وقفوا عند القول بأن العالم كما يريده المعترضون أصعب تصورا وأشد ظلما للمخلوقات من العالم كما يتصوره المتدينون المؤمنون بوجود الله ، على غاية ما ينتهى إليه تصور العقل البشرى من الحكمة والقدرة .

ونحن أوثق ما نكون يقينا بأن سائر البراهين التى تخطر للمعترضين تجرى هذا المجرى وتنتهى عند القياس إلى مثل هذا النهاية وكلها كافية للاقتناع بأن براهين الشك والإلحاد أظهر خطأ من براهين اليقين والإيمان .

عباس محمود العقاد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

التطهير في الإسلام

للأستاذ محمد محمد المدني

التطهير نوعان : تطهير حسي ، وتطهير نفسي .

وكل ما جاء في القرآن الكريم من هذا اللفظ ومشتقاته ، فإنما يرجع إلى واحد من هذين المعنيين .

والإسلام دين تطهر وتنزه ، وهو في كل ما شرعه ، إنما يريد تطهير الإنسان عن الدنس والعيب ، والسمو به عما لا يليق بإنسانيته في مظهرها ومخبرها : يقول الله تعالى : « إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين » .

وهذه الآية الكريمة تقرن بين تطهير النفس ، وتطهير الجسم :

فالتطهير الجسمي يكون بالنظافة والاغتسال والتحرز من النجاسة والقاذورات التي من شأنها أن تلوث الأجسام وما يتصل بها من ملابس وأماكن ، فتؤذي الإنسان ، وتؤثر على حواسه ، وتسيء تبعاً لذلك إلى نفسه وروحه ، فإن الإنسان إذا كان نظيف البدن ، نظيف الثوب ، نظيف المكان ، أحس بالراحة والطمأنينة ، وأشرقت نفسه ، وتألقت روحه ، وزكا عقله ، وعلى العكس من ذلك : إذا أحاط به الدنس أحاطت به آلام النفس ، وخفتت فيه شعلة الذكاء ، وقد امتن الله تعالى على المؤمنين بما أيدهم به يوم بدر من إمدادهم بألف من الملائكة مردفين ، بشرى لهم ، ولتطمئن به قلوبهم ، وامتن عليهم مع هذا بقوله : « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان . وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » ، فدلنا ذلك على أن إمداد الله عباده بالماء كان له أثر بعيد في تثبيتهم ، والربط على قلوبهم ، لا يقل عن أثر إمدادهم بالملائكة .

وأمر التوبة ، وإن كان يبدو أنه أمر روحي بين العبد وربه ، لكنه ذو تأثير مضوي في الأفراد يتأثر به المجتمع : فالفرد لا يخلو من أن يقع في بعض الذنوب ومن أن يساوره اليأس حيناً من الغفران ، وليس هذا مما تستقر عليه النفوس ، وتهدأ به الحياة ، وإذا استولى القلق النفسي على الأفراد في مجتمع ما ، فإن هذا المجتمع يصيبه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نوع من الشلل أو الخلل ، إذ يقول العاصي في نفسه : ما دمت قد ارتكبت الموبقات ، وأحاطت بي الخطيئة من كل جانب ، وليس أمامي باب مفتوح أفر إليه مما قد أحاط بي ، فلأفعل ما أشاء ، ولأنغمس في حمأة الرذيلة إلى الأعماق ، لذلك كان من رحمة الله تعالى أن شرع التوبة ، وجعل بابها مفتوحا أمام العصاة والمذنبين إلى أن تشرق الشمس من مغربها ، أي إلى أن ينتهي نظام العالم الكوني في هذه الدنيا ، وبها يتطهر الإنسان من أدران الآثام والمعاصي ، ويعود إلى حظيرة الطاعة ، ويرجع إليه اعتباره الروحي الديني ، وفي ذلك يقول الله عز وجل ، مبشراً بواسع رحمته : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » ، ويقول جل جلاله : « إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

وتفيد الآية الأخيرة أنه كما يقال في حق العبد : تاب إلى ربه ، أي رجع عن ذنبه ؛ يقال في حق الله جل وعلا : تاب على عبده ، بمعنى قبل توبته ، وتوبته تعالى على عبده هي رجوعه عليه بالقبول والمغفرة والتعبير بذلك يفيد معنى ساميا هو تجاوب الله تعالى مع عبده حين يقصده ويرجع إليه ، وهو معنى تردد ذكره في مواضع من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي » أي فإنهم إذا استجابوا لي استجبت لهم ، وقوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ؛ لوجدوا الله توابا رحيما » ، وقوله جل شأنه : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » .

ووجه العظمة في هذه العبارات القرآنية : أن وجود الله تعالى على هذه الصفات أزلي قديم ، وليس متوقفاً على رجوع العبد وتوبته ، ولكن التعبير بقوله « لوجدوا الله توابا رحيما » ، أو « يجد الله غفوراً رحيما » فيه تصوير بارع لتجاوب الرحمة الإلهية وحضورها من مشيئة العبد التائب المستغفر فالله تعالى كأنه يقول لعباده : أنا موجود على صفاتي ، من الرحمة ، والتوبة ، والغفران فلو جئتم إليّ لوجدتموني وكأني أنتظركم وأرقب عودتكم ، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم .

وفي تصوير هذا المعنى أيضا يقول الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه « من تقرب إلي الله شبرا ، تقرب الله إليه ذراعا ، ومن تقرب إليه ذراعا ، تقرب إليه باعا ، ومن أقبل عليه يمشي ، أقبل عليه يهرول » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وبهذا يتبين أن التوبة من العبد إلى ربه ومن الرب على عبده ، إنما هى ارتباط متبادل على سنة الرحمة والحكمة من الله ، والترجى والاسترحام من العبد ، وأن أثرها فى نفس العبد ، هى إمساك إيمانه أن يزول أو يتخلخل لو أنه علم أن الله لا يقبله ، فهى توطيد الثقة بالله فى نفوس العباد ، وتطهير لقلوبهم من عوامل الزيغ أو الخروج على الله.

وما دامت هذه الرابطة بين العبد وربه قائمة ، فإن الأفراد بخير وإلى خير ، والمجتمع بخير وإلى خير .

* * *

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه فتح لهم أبوابا كثيرة فيها تطهير حسى ، وتطهير نفسى ، لجذبهم بذلك إليه ، وطهر قلوبهم من اليأس من روحه : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

فالصلوات لا بد فيهن من وضوء ، والله تعالى يقول فى شأنه بعد الآية التى تقررت حكمه: « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ، ويقول جل جلاله فى شأن الماء نفسه وماله من أثر فى تطهير الجسم والنفس : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

والصلاة نفسها تطهير ، وقد شبهها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنهر على باب المؤمن يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فلا يبقى من درنه شىء .

ولو أن المصلى عرف حق الصلاة ورعى هذا الحق فأداها على وجهها ، لكاد يكون من الملائكة المقربين الذين « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، فإن الله تعالى يقول : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ويقول : « إن الإنسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون » ويقول : « فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون . ويمنعون الماعون » .

فهذه آيات ثلاث لكل منها توجيه :

فالآية الأولى تفيد أن الصلاة من شأنها النهى عن مواقف الإثم الكبرى التى عبر عنها بالفحشاء والمنكر ، وذلك أن المؤمن إذا وقف مخلصا خاشعا بين يدى ربه خمس مرات كل يوم ، غير ما عسى أن يؤديه من النوافل فى نهاره وليله ، كان له من هذا الموقف الكريم داع ملح يدعوه إلى الفضيلة ، وينهاه عن الرذيلة - وتقول . (داع ملح) لأن دعوته متكررة بتكرر صلواته ، والنفوس تنطبع عادة بما يلقى عليها مرة بعد مرة ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وتألف ما لعلها كانت من قبل تأنفه ، وقد قيل لبعض المتصوفة : إن فلانا يصلي ولكنه يشرب الخمر ، فقال . ستنهاه صلاته يوما ما ، يريد أن محافظته على صلاته ، ومثابرته على أدائها ستظهر ثمرتها آجلا ، وإن لم تظهر عاجلا.

وفى الآية الثانية يقرر الله تعالى طبيعة الإنسان التى خلق عليها من الهلع والجزع والبخل والمنع ، ويستثنى من ذلك المصلين المثابرين على صلاتهم ، حيث يقول : « إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون ». لأن المداومة والمثابرة من أقوى درجات الإيحاء والتوجيه .

أما الآية الثالثة ، فليست - فيما نرجح - تتحدث عمن تفوتهم الصلاة سهوا ، أو عمن يتشاغلون عنها ولا يهتمون بها حتى تصبح فى مرتبة الشئون المغلوبة التى تنسى ولا يلتفت إليها ، ولكنها تتحدث عن الذين ينسون مقتضيات صلاتهم وما يجب أن يكونوا عليه من الإخلاص لله ، والرفق بالمجتمع ، فتقول : الويل كل الويل لمن كان همهم من صلاتهم أن يقوموا ويقعدوا ، ويدخلوا المسجد ويخرجوا ، وهم مع ذلك ساهون عن مقتضى توجههم إلى الله ، ووقوفهم بين يديه ، يسمحون لأنفسهم أن يكونوا مرائين متظاهرين ، مع أن الصلاة أبرز شعائر التوحيد ... والإخلاص ، ويرضون لأنفسهم أن يكونوا بخلاء « يمنعون الماعون » أى يضنون بحاجات الناس أن يعاونوهم عليها ، وينسكشون ، فلا يدورون إلا حول أنفسهم ، وفى فلك مصالحهم الخاصة .

هذا هو شأن الصلاة وما لها من تربية وتهذيب ، وما فيها من تطهير للمؤمنين بها ، الخاشعين فيها ، من أدران الفحشاء والمنكر والهلع والجزع والمنع والرياء والأثرة .

وإذا كان للصلاة هذا الأثر البعيد ؛ فإن للزكاة أيضا أثرا طيبا فى إصلاح النفوس وتطهيرها من عوامل الشح والأثرة ، ولذلك يقول الله عز وجل : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ».

وليس المراد - فيما نرجح هنا أيضا - أن الجزء المأخوذ على وجه الزكاة يطهر المال فكأنه هو نفايته ووذاله ؛ ولكن المراد - والله أعلم - ما للزكاة من أثر فى استلال عوامل الشح والحرص من المعطى ، وفى استلال عوامل الحقد والحسد من الفقير ، وأن هذا وذاك من شأنهما تزكية المجتمعات وتطهيرها مما يفسد جوها ، ويشقى أهلها ، وقوله تعالى : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » يراد به - والله أعلم - الصلاة بالمعنى اللغوى ، وهى الدعاء بالرحمة والأمن وقرار النفوس وقرة العيون ، وهذا الدعاء من الإمام العادل - ولا سيما إذا كان رسول الله

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

صلى الله عليه وسلم - إنما ينبع من رضاء نفسه بمجتمعه ، وتجاوبه معهم تجاوب المتحابين ، فهو يعود عليهم بالطمأنينة والسكينة والأمن والرضا .

فهذا لون آخر من ألوان التطهير والتزكية .

وفى الحج تطهير كذلك ، فإن الحج المبرور يمحو الله به الخطايا ويطهر المؤمن من الذنوب كلها ، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حج فلم يرفث ولم يفسق عاد من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

وأحداث الدنيا تصيب المؤمن فيصبر ويكافح ولا ييأس ، فيجعل الله له بها كفارة وأجراً حسنا ، حتى الشوكة يشاكها ، ولا سيما أهل الجهاد بأنفسهم أو أموالهم أو آرائهم وأقلامهم فى سبيل الله : « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » ؟

محمد محمد المدنى

قال ذو الإصبع العدوانى فى الاعتداد :

لى ابن عم على ما كان من خلق ... مخالف لى أقليه ويقليني

أزرى بنا أنا شالت نعامتنا ... فخالني دونه ، لا بل خلته دوني

إنك إلا تدع شتمى ومنقصتى ... أضربك حيث تقول الهامة اسقوني

إنى لعمرى ما يبقى بذى غلق ... على الصديق ولا خيرى بممنون

ولا لسانى على الأدنى بمنبسط ... بالفاحشات ولا فتكى بمأمون

هى إليك فما أمى براهية ... ترعى المخاض ولا رأيى بمغبون

لا يخرج الذم منى غير مأبية ... ولا ألين لمن لا يبتغى لينى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نفحات القرآن

نعمة المال والبنين
شقوة على المنافقين والكافرين

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) ولا تعجبك أموالهم وأولادهم
(ب) إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا
(ج) وتزهق أنفسهم وهم كافرون .

١ — عرض القرآن لذكر المال والبنين فى كثير من مقاماته والمفروض أن للمال والبنين فى قوام الدنيا ، ومباهج الحياة شأنا لا يعد له شأن .

وإذا كان مطبوعا فى غريزة الإنسان أن الحياة أعز شىء يتعلق به ، وأن روحه أثيرة عنده على كل ما فى الوجود : فإن ما يلى ذلك فى الأهمية عنده بحكم الغريزة هو ماله وولده بل قد تتغالى نزعة الإنسان فى الحرص عليهما حتى يضن بهما على كل غاية تقصد منهما فى جوانب الدنيا .

بل حتى يصير المرء فى اعتبار نفسه أرخص من ماله وولده ، فيفتديهما أحيانا بروحه التى هى أعز لديه مما فى الوجود حسبما قررنا بحكم الغريزة .

ومن إشادة القرآن كثيراً بالأموال والبنين ندرك مجاراته للغريزة فى تقديرهما كنعمة كبرى ...

وندرك أن امتنانه علينا أحيانا بهذه النعمة : توجيه إلى صيانتها عن الإتلاف ، وسوء التصرف ، والخروج بهما عن مسالك النعمة فيما يراد منهما ، وفيما تحاط به من وسائل الرعاية لحق الله الذى تفضل بها على عباده .

٢ — وقديما كان يدور بخواطر الناس ما يدور بخواطرنا اليوم نحو الكافرين ، والمنافقين ، ومن إليهم بالنسبة لتوافر النعم عليهم بالمال والبنين ، وسواهما ...

فهم — لاشك — أعداء الله ، وجاحدون لرسالاته أو لبعضها .. وهم مع ذلك يرفلون فى نعم سابغة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ثم هم يتمادون فى غرورهم ، وتغريرهم لأنفسهم بأن الله يكرمهم بالعطاء ؛ لأنهم أحق به من سواهم ، ولو كان الله ساخطا عليهم لمنعهم هذا العطاء ، أو سلبه منهم حينما - يكونون على غير الحق - منذ كانت فى الدنيا رسالات ، وبعد أن ختمت الرسالات بمحمد ابن عبد الله ! !

وإزاء هذه الخواطر كان من الإرشاد التحفظى بالنسبة للنبى - صلى الله عليه وسلم - وهو إرشاد تعليمى له ، ولأمته جميعا - قول الله تعالى « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم » .

فليس مظهر الأموال والأولاد مغنيا عن أولئك المخالفين لله فى دينه شيئا من عذابه ولا مطمئنا عليهم هنا أو هناك .

٣ - وبين الله فيما بقى من حديثه حكمه فى توفير الأموال والبنين لهؤلاء المستهترين بدعوة الله - فقال « إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا » .

حيث يكون حرصهم على المال والولد مشغلة لهم عن صفو المتاع بهما فى وجوه الخير الصحيح .

بل يكون النصب ، والكدح مكابدة شاقة تلازمهم فى الجمع ، وفى التنمية ، وفى الخوف دائما من النقص .

فتلك الهموم هى النتائج التى تحدق بهم من جانب الأموال والأولاد .. حيث لا يتجهون إلى دين يخفف من حدتهم فى الحرص ، ولا يرطب صدورهم بالصبر على ما يصيبهم فى شىء من هذا .

لأنهم لا يعولون على ثواب ، ولا يؤمنون إيمانا حقا بما وراء الدنيا من عواقب الآخرة .

٤ - وبين الله كذلك أنه أنساهم حسن التفكير فيما بأيديهم ، فهم يلهون به حتى تزهق أنفسهم بالموت ، ويدركهم على كفرهم .

ومن هذا يبدو أن الانهماك المفرط عكس عليهم مظاهر النعمة ، حتى جعل حاضرها ومآلها آلاما وخسرانا .

أما من ترطبت نفسه بنسمات الدين ، ونظر إلى ما بعد الدنيا من عذاب أليم ، أو نعيم مقيم ، فإنه لا يبيع نفسه لدنياه ، ويقتصد فى حرصه ، ويتعلق كثيرا بما هو أبقى عند الله ، ويكون نشاطه فى كسب الدنيا ، والمتاع بالمال والولد ممزوجا بعمله للآخرة .

وقد تكرر هذا السياق فى آية أخرى من سورة التوبة نفسها ليؤكد الله فى أنفس الناس هذا التذكير ، ويقاوم به ما يتغلب على النفوس من التعلق بمتع الحياة أكثر مما ينبغى .

كما ذكره الله فى نهى صريح لرسوله بالذات ، ولأمته بالتبع ، فقال :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

« ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم - كثيرين - زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه » .

ومعلوم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن عالق الذهن بنعيم الكافرين والمنافقين ، ولكن غيره من الناس كان ، وسيظل يتطلع ، ويرغب ، ويطمع فى مثل ما عند أولئك .

فجاء النهى للنبي تحفظاً ، وتربية ، وجاء لغيره فوق ذلك زجراً ، وتهذيباً ، وتبرئة من لوثة الأطماع ، والتطلع وغبطة الكافرين والمنافقين على ما هم فيه ظاهراً ...

حتى لا يتسرب إلى نفوس المؤمنين ، أو لا يتغلغل عند بعضهم شغف بما ليس فى أيديهم من أعداء الله .

٥ — والله يبين لرسوله ، ولكل مستجيب لدعوته أن هذا المتاع إنما هو زهرة تلوح فى الدنيا ، وهى عرض غير مستقر ، فهو كما نشأ مسبوقا بعدم : صائرا ولا محالة إلى فناء ... والظفر بهذا المتاع ليس تكريما للمنافقين والكافرين ... وإنما هو اختبار ، وكشف يظهر الله به ما يعله عن نفسية هؤلاء من تمرد ، وجمود ، ويستدرجهم به إلى التفكير ، وحسن الاختيار ...

فإن لم يفعلوا خيراً لأنفسهم ، كان هذا النعيم تسجيلا لجحودهم فى الدنيا ، ووبالا فى الآخرة . والبصراء من الناس لا يخدعون أنفسهم بحظ يعقبه بؤس ، ولا يلهيهم ما تراه العين عما تفطن إليه البصيرة - خصوصاً إذا كان تذكير القرآن متوالياً ، وفى أساليب شفافة ومتنوعة ، كلها يعرض لما يخالجنا من هواجس الفكر فى حياة المترفين من خصوم الدين الحق .

ومن هذه التوجيهات كذلك « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » فأولئك ينطلقون فى دنياهم مرحين ، ويسبحون فى جوانب الحياة لاهين ثم مأواهم الذى ينتهون إليه ، ويستقرون فيه هو جهنم على تعدد طبقاتها ، وتنوع العذاب الشديد فيها ..

ولئن كانت للمؤمنين حظوظ فى الدنيا كذلك فالفرق أن الإيمان سياج من البطر ، وأن المؤمنين برشدهم يميزون الحق من الباطل ، ويجعلون دنياهم وسيلة إلى آخرتهم وبهذا الاتجاه يجمعون بين خيرى الدنيا والآخرة ، والله تعالى يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولكنه لا يعطى الآخرة إلا لمن يحبه ، وهم المؤمنون .

وهم الذين قال فيهم « ومن أراد الآخرة ، وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فهذا وعد الله لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها .. وليس حتما فى جانب الإيمان ، ولا لمن أراد الآخرة أن يكون المرء متبتلا ، ومعتزلا الدنيا ، راغبا عنها ، بل يكون قائما فى حياته على جادة معتدلة ، فيستوفى حظه من الدنيا فى ضوء الدين وهديه ، حتى لا يتخبط فى حياته خبط العشواء فى ظلمات الطريق .

ويكون فى تدينه ، وفى مسلكه الحيوى معقولا أليفا ، غير متزمت ، ولا متشائم .

وما دامت نفسه شابة على غرار الدين ، وناشئة فى حوزته ، ففى وسعه غالبا أن يؤثر بروحه الطيبة فيمن حوله ، وفى مقدوره أن يتحاشى المساقط وراء الغواة ، المستهترين الغافلين .

٦ - بين الإنسان وغيره علاقات ، وفى جانب هذه العلاقات تبدو النزعات المستورة فى طوايا النفوس ، ويكون التأثير على الغير منوطاً بقوة الروح واعتداد المرء بنفسه ومبدئه ، فمن طهرت نفسه حقا ، وتسامت روحه عن الهبوط ، واتجه إلى المستوى الرفيع استطاع أن يكون متبوعا لا تابعا ، وأخذ بيد غيره عن طريق الإرشاد ، والقدرة به فى مسلكه العملى إلى مكارم الخلق ، وشرفات المجد ، ومناقب الوطنية .

ولذلك نرى للمصلحين جهاداً دائبا فى إصلاح من حولهم ، ومن يتصل بهم ، وهذا هدف يقصده الدين من كل ذى عقيدة ، وشعور بواجبه الاجتماعى ، نحو أخيه المسلم ، بل نحو أخيه الإنسان أينما كان ؟ ؟ .

وسبيل ذلك أن يكون المسلم فى غير معزل عن الدنيا كما يزعم المترهبون ، أو بعض المتصوفين .

وحينما يتحدث القرآن عن المال والولد ، وينكر على أناس أن يستعبدهم المال والولد فإنما يريد ألا يستكين المرء إلى ملابساته الخاصة ، ويريد أن يكون للإنسان بروز فى جوانب المجتمع ، ليستمر بقاء الناس فى صلاح من الأمر ، ورفاهية فى الحياة ، ويكونوا أوفياء بعهد الله فى عمارة دنياهم ، كما استخلفهم فيها لذلك ...

وهل يقصد الدين فى تشريعه كله غير سعادة الناس ؟ « فما لهم لا يؤمنون » . « وإذا ذكروا لا يذكرون » ؟

عبد اللطيف السبكى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الشرق والغرب

نظرية الفروق الجنسية في ضوء الإسلام

للأستاذ محمد رجب البيومي

يقول المستشرق الانجليزي الكبير مستر جب في كتابه (حيثما يكون الإسلام) :

« ولكن الإسلام ما زال في قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحا باهراً في تأليف الأجناس المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الإسلامية العظمى في إفريقية والهند وأندونيسيا ، بل تلك الجامعة الصغيرة في الصين ، وتلك الجامعة الضئيلة في اليابان ، لتبين كلها أن الإسلام ما زالت له القدرة التي تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات ، فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلابد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع » .

وكلام المستر جب واضح لا لبس فيه ، فهو يعلن في صراحة أن مبدأ الإسلام في المساواة هو الحل الأوحد الذي يقضي على التنافر المتطاحن بين الأجناس والشعوب ، وأنه وحده لا سواه الذي يستطيع أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة إذ ينظر إلى بني الإنسان نظرة واحدة لا يختلف فيها بعيد عن قريب ، والمدهش حقاً في منهج الإسلام أنه صاحب القانون الأوحد الذي جاهر في أعظم أيام ازدهاره بأن الناس سواسية كأسنان المشط ، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بتقوى الله ، وأن كل الناس لآدم وآدم من تراب ، مع أن الذي يتتبع آراء الدول المتغلبة قبل الإسلام وبعده في إبان رقيها الثقافي أو السياسي يجد كل شعب يخلع على جنسه من عوامل التفوق ، وطهارة السلالة ونقاء المعدن ما لا يمكن أن يخلص لسواه من الأجناس ، حاشا الإسلام فقد جاء ليقدم بلالا وصهيباً وسلمان على صناديد العرب من أمثال أبي سفيان ... لقد ازدهرت الثقافة الإغريقية ازدهاراً صار حديث الأجيال المتغنية بفلسفتهم وآدابهم حتى عزى إليها فضل النهضة العلمية الأوربية ، ولكن أصحاب هذا الارتقاء الفكري وقد نظروا إلى أنفسهم بقداسة وتعاظم ، فأعلنوا أن ما عداهم من الشعوب بربرى متوحش وجاء أفلاطون ليقسم الناس في جمهوريته إلى طبقات من السادة والعبيد فيختص بالسيادة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والحكم أناسا وبالخدمة والاستعباد آخرين ، ثم تابعه أرسطو فى كتاب السياسة فأعلن فى قسوة أن للإغريق على المتوحش حق الإمرة ، وأن العبيد إذا عوملوا بالرفق صاروا سفلة وقحاء ، وأن الآسيويين يطيقون استبداد الحاكم وجبروته ، أما الإغريقيون فأحرار أباة وأن شعوب الأرض الباردة أقل ذكاء وأكثر شجاعة من غيرهم ، وأن اليونانيين أفضل الناس على الإطلاق ، وقد اشتهر كتاب أرسطو فى السياسة وتناقل أكثر العلماء آراءه كحق صريح لا يقبل التأويل .

ثم دار الزمان فتألقت السيطرة الرومانية وخبا مشعل الإغريق إلى أمد ما ، فأخذ الرومانيون يدعون أن كل من لا ينتمى إلى الامبراطورية بربرى متوحش وأنهم وحدهم أصحاب السمو والارتقاء وأن جيرانهم الأدنين من الجرمان والصقلب والسكلت أجناس منحطة متقهقرة ! وقد نسى الإغريق والرومان معا أن الحضارة الأولى فى طريق الإنسانية كانت شرقية لا غربية وأن مبادئ الفلسفة نمت على ضفاف النيل ، وأن الحروف الأبجدية لديهم مستوردة من لبنان وسوريا أيام الفينيقيين ! ولكن الحق شىء والغطرسة الكاذبة شىء آخر عند أولئك وهؤلاء .

فلما أشرق نور الإسلام كان مبدؤه الإنسانى الأوحد هو المساواة وكان تطبيق عمر لهذا المبدأ المثالى فى عصر القوة الباهرة عجبا من العجب فقد تداعت دولة الفرس تحت معاول العرب وترنحت امبراطورية الروم بقوة الإسلام ووقف أمير المؤمنين فى أوج عظمته وباهر قوته ليطبق المساواة مهتديا بكتاب الله ومتبعا نهج رسوله الكريم .

لقد جهر الرسول الأعظم بتقرير حق المساواة فى حجة الوداع حين قال فى خطبته الرائعة: «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد». ورأى عمر شيخا ضريرا يسأل على باب . فسأل فعلم أنه يهودى فقال له : ما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : الجزية والحاجة والسن ، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال « انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخزيه عند الهرم » .

« وحضر ببابه جماعة من أشراف قريش منهم سهيل بن عمرو بن عبد شمس خطيب قريش وعيينة بن حصن وقيس فزارة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأبو سفيان بن حرب زعيم قريش قبل الفتح ومعهم نفر من العبيد والموالى ممن شهدوا بدرا ، فطلبوا الإذن ، فخرج الآذن يدعو بلالا فعمارا فصهيبا فسلمان وترك السادة فغضب أبو سفيان وقال لم أر ذلا كاليوم يؤذن العبيد ونترك ، ليخيل إلى أن حجارة الجلهتين لو استأذنت لتقدمت . فقال سهيل فى أناة لم تتمعر وجوهكم يا قوم ؟ دُعوا ودُعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكثر » .

هذه مبادئ الإسلام ضاءل من تأثيرها النفاذ أن انحرف عنها خلفاء بنى أمية حين تعصبوا للعرب ظالمين ، فسمحوا لغيرهم أن يناصبهم العداء ، ثم ظهرت الشعوبية البغيضة فنشأ صراع آثم ينأى عن الإسلام فى لبابه ويرتد إلى دعوى الجاهلية فى التفاخر بالأحساب والأنساب ، وكانت كارثة تحملها الإسلام مظلوما إذ حاد عن هديه تابعوه ، ثم حصحص الحق بعد لأى ، فعرف المسلمون نهجهم القويم ، واهتنقوا المساواة النزيهة مبدأ ينبع من قرآنهم الكريم لا بضاعة مستوردة من الثورة الفرنسية كما يزعم بعض من يجهل تعاليم دينه مؤثرا أن يكون ذيلا لأعدائه لا رأساً فى ذويه !

لقد نادت الثورة الفرنسية بمبادئ الحرية والمساواة والإخاء لتظل حجرا محجورا على الأوربيين دون الشرقيين ، فالحرية للغرب وحده ، أما دول الشرق فلها الاستعباد والذل والاحتلال ، وقد شاعت فى أوربا الحديثة نظرية الفروق الجنسية ، بل إن أمريكا نفسها تجعل الزنوج فى بلاد الجنوب موضع احتقار الجنس الأبيض ، ولا يزال الرئيس الأمريكى يفاجأ كل يوم بمآسى التعصب الجنسى مما اشتهر أمره واحتاج إلى علاج سريع .

ونسلم الآن بخلاصة موجزة لنظرية الفروق الجنسية ومدى تأثيرها السيئ فى العالم الإنسانى ولعل من بعض كوارثها الدامية أن أشعلت حربين عالميتين تفهقرت بهما الحضارة إلى الوراء كثيرا ، وصبتهما اللعنات السوداء من أفواه الثواكل والأيامى والأيتام ، إذ حصدت ملايين الأرواح وتداعت آلاف المنازل والقصور .

لقد نادى الكونت دى غوبينو الفرنسى فى القرن التاسع عشر بنظرية الأجناس البشرية لجاهر بأن تطور تاريخ الشعوب هو تطور العرق ذاته وأن الأمم ذات البشرة البيضاء هى السباقة دائما فى مضمار الرقى ، وزاد فجعل الجنس الأبيض متفاوتا وفق نقاء الدم فمنه الأمثل الأعلى ، ومنه ما دونه فى السمو والارتقاء إلا أنه على تفاوته فوق الأجناس جميعا ، وقد فلسف نظريته فلسفة منطقية ، ونستطيع أن نفهم خلاصتها مما نشره

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأستاذ ما جد بهجت عنها بمجلة الرسالة العدد ٦٦٩ ، ٢٩ أبريل سنة ١٩٤٦ حيث قال فى بسطها :

« إن المخلوقات من حيوان ونبات وجماد تخضع لقانون طبيعى أزلى يتميز بعضها عن بعض فهناك فصيلة خير من فصيلة ، وعنصر خير من عنصر ، وبطون خير من بطون ، ففى الحيوان ترى الخيول العربية أفضل من غيرها ، وفى النبات ترى الورد الجورى له رائحة زكية هى أعبق وأشهى من غيرها ، وفى الجماد تجد الفولاذ متانة تفل الحديد ، كذلك الإنسان ـ وهو من عنصر الحيوان لبعضه تفوق على غيره ، وهـذا الإنسان المتفوق إنسان أعلى ، ويكثر عدد المتفوقين فى شعوب دون شعوب ، فبطبيعة هذه الحال تكون هـذه الشعوب التى كثر أفرادها المتفوقون شعوبا عليا ومن حقها السيطرة والنفوذ .

وتعتمد النظرية فى إثبات دعواها على عوامل منها :

١ ـ أن القدرة العلوية شاءت أن تختار عنصراً متفوقا من بنى الإنسان لتعهد إليه بالإدارة والقيادة فى العالم .

٢ ـ إن العلم فى ذاته دافع إلى السيطرة والغلبة فإنه يسلم صاحبه وسائل ارتقائه وسموه .

٣ ـ أن التاريخ يحدثنا عن الأبطال وحدهم فهم السادة المطاعون .

٤ ـ أن الواقع يصف لنا حاجة الأمم الماسة إلى التوسع وبسط النفوذ نتيجة لزيادة الإنتاج وكثافة النسل .

ثم تنتهى النظرية بالدعوة إلى إنشـاء امبراطورية واحدة تضم جميع هذه الشعوب التى كتب لها ابيضاض الجلد وصفاء الدم فتهيمن على العالم وتسيره بإرادتها الجبارة » .

ومن الواضح أننـا لا ننكر تفوق بعض الناس على بعض ، لأمور لا ترجع للجنس والدم بل لازدياد الثقافة وارتقاء البيئة ، وهـذا ما عناه القرآن حين قال : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » ، والكونت دى غوبينو بمنأى عما نحن فيه لأنه يرجع بالتفوق إلى الدم والعرق وقد نسى أن المدنيات الباهرة على شواطىء النيل ودجلة والفرات وفى سوريا واليمن السعيد قد ازدهرت حين كانت أوربا ذات الدم المزعوم متوحشة تتخبط فى عصور الظلمات ، بل إن بغداد العباسية والقاهرة الفاطمية وقرطبة العربية كانت جميعها ترفع مشعل الحضارة الإسلامية وبلاد التفوق الموهوم تضم أناسا عراة يرتدون جلود الذئاب ، ويعيشون عيشة الهمجى المتوحش فى أدغال الغابات وظلمات الأحراش ، ومن المؤسف أن نظرية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الكونت قد وجدت صداها الرنان فى أوربا بنوع عام ، وفى ألمانيا بنوع خاص إذ وفدت إليها بعد الوحدة الجرمانية وتطلع ساستها إلى مشاركة انجلترا وفرنسا وهولنـــدا فى مستعمراتها الشاسعة عن طريق الغصب والاستغلال ، وقد تأثر بها فردريك نيتشه فأوحت إليه ببعض آرائه فى السبرمان ، وأخذ الشباب الألمانى بتأثير هذه الأكذوبة يغنى نشيد « ألمانيا فوق الجميع » ، ثم اندفع متهوراً إلى تأجيج حربين كبيرتين عادتا على الإنسانية المعذبة بالهول والشقاء !

لقد كان من الغريب الشاذ أن تدعو نظرية الفروق الجنسية إلى الوحـــدة الجامعة فى امبراطورية تضم الشعوب البيضاء وتبسط سيطرتها على الشعوب الملونة وإذ ذاك - فى منطق الكونت وأشياعه - يستتب الأمن حيث يخضع الضعيف الأبله الجاهل للقوى العاقل العالم ! وتمضى القرون المتتابعة على تأثيل هـذه الامبراطورية وتثبيت دعائمها فى الوجود ، فيعم الاستقرار .

ولكن مرور نصف قرن فقط قد عصف بآمال عشاق هـذه النظرية الخرقاء وجعل أشياعها من متطرفى الألمان يتحسرون لخيبتهم المريرة فى حربين هائلتين وثبت للعالم الإنسانى كافة أن أسطورة التفوق حلم مجنون عصف برأس استقراطى نشوان ! وجعل المنصفين من كتاب أوربا ينظرون إلى أساس السعادة الإنسانية من جديد ، فيعرفون أنه فى إنصاف الشعوب وتقرير حق المساواة كما شرعها الإسلام . ولذلك أصاب المستشرق الانجليزى الأستاذ جب مقطع الصواب حين قال : « إن الإسلام مازال فى قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح ، نجاحا باهرا فى تأليف الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة أساسها المساواة » .

وتلك كلمة حق تزرى بجميع ماصاح به أنصار التفرقة من لدن أفلاطون وسقراط إلى ما يردده الآن بعض أعضاء الكونجرس الأمريكى من لغو زائف فات أوانه وانقطع مداه .

محمد رجب البيومى
المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عبد القاهر الجرجاني وآراؤه في الشعر والشعراء

للأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي

١ ــ للشعر عند عبد القاهر مكانة رفيعة ، يرى فيه « الحق والصدق ، والحكمة وفصل الخطاب ، ويجده مجنى ثمر العقول والألباب ، ومجتمع فرق الآداب ، الذى قيد على الناس المعانى الشريفة ، وأفادهم الفوائد الجليلة ، وترسل بين الماضى والغابر ، ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد ، ويؤدى ودائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد ، حتى ترى به آثار الماضين ، مخلدة فى الباقين ، وعقول الأولين مردودة فى الآخرين ، وترى الكل من رام الأدب ، وابتغى الشرف ، وطلب محاسن القول والفعل منارا مرفوعا ، وعلما منصوبا ، وهاديا مرشدا ، ومعلما مسددا ، وتجد فيه الغنى عن طلب المآثر ، والزاهد فى اكتساب المحامد ، داعيا ومحرضا ، وباعثا ومحضضا ، ومذكرا ومعرفا ، وواعظا ومثقفا »[1] .

ويرى مظاهر البلاغة تبدو فيه جلية قوية ، وهو من أجل ذلك يصلح أن يكون موضع موازنة بينه وبين القرآن ؛ ليتبين بهذه الموازنة موضع الإعجاز فى القرآن ، ويمكن الوقوف على الجهة التى كان منها هذا الإعجاز[1] .

وقد تصدى عبد القاهر للدفاع عن الشعر ، والرد على أولئك الذين زهدوا فى روايته وحفظه ، وذموا الاشتغال بدراسته ، وأورد حججهم فى ذلك ، ورد عليها واحدا واحدا[2] .

وعرض لتنزيه الرسول الكريم عن قول الشعر ، ورأى سبيل ذلك سبيل الخط حين جعل عليه السلام لا يقرأ ولا يكتب ، فى أن المنع لم يكن من أجل كراهة كانت فى الخط ، « بل لأن تكون الحجة أبهر وأقهر ، والدلالة أقوى وأظهر ، ولتكون أكم[3] للجاحد ، وأقمع للمعاند ، وأرد لطالب الشبهة ، وأمنع فى ارتفاع الريبة »[4] .

ومعنى ذلك أن الكتابة فى حد ذاتها ليست عيبا ولا نقيصة ، ولكن أمية الرسول أقوى فى الدلالة على رسالته ، مما لو كان قارئا كاتبا ؛ لأن المجال للشك فى رسالته حينئذ

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .
(٢) المرجع السابق من ص ٩ إلى ص ٢٣ .
(٣) أكم : من كم البعير : شد فاه عند هياجه .
(٤) دلائل الإعجاز ص ٢٢ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

يشتد ويتسع ؛ فكذلك الشعر ، ليس فى حد ذاته عيبا ، ولكن نفيه عن الرسول يؤكد رسالته ، عندما نرى للقرآن هذا الأثر البالغ فى النفس ، وهذا السحر المستولى على القلب ، من غير أن يكون الرسول شاعرا ، ولا القرآن شعراً .

عبد القاهر إذاً ممن يمجدون الشعر ، ويتلمسون ألوان البلاغة فيه ، ويقفون معجبين بما يملؤه من مظاهر الجمال يتذوقون هذه المظاهر ، ويحاولون أن يطلعوا الناس عليها ؛ ليستمتعوا بإدراك الحسن فى بلاغة الكلام .

ويرى أن الموازنة بين الشعر والقرآن كفيلة ببيان تفوق التعبير القرآنى ، وإدراك إعجاز القرآن ، ولكن عبد القاهر لم يطبق هذه الفكرة فى كتابيه : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ؛ بل كان يكتفى بالتمثيل لفنون البلاغة بالشعر والقرآن معا ، من غير أن يوازن بينهما ، أو يبين تفوق القرآن ، ولو أنه جعل ذلك من أهدافه لكان قد حقق بالفعل أملا كبيرا فى بيان إعجاز القرآن .

وكان عبد القاهر واسع الاطلاع على دواوين الشعراء ، يقف عندها ؛ ليرى فى أبياتها مظاهر البلاغة ، والخصائص الفنية لفصاحة القول ؛ واستشهد بكثير من أبيات الشعر على الخصائص البلاغية ، وأبدى رأيه فى كثير من الشعراء ، وخص ثلاثة منهم ، فاختار من دواوينهم طائفة من أشعارهم وجدها جديرة بالحفظ والتقدير وهؤلاء الشعراء الثلاثة هم : المتنبى ، والبحترى ، وأبو تمام .

٢ — ويصدر عبد القاهر كتابه : المختار من دواوين المتنبى والبحترى وأبى تمام » ، مبينا اللون الذى اختاره من شعرهم ، وسر هذا الاختيار ، إذ يقول : « هذا اختيار من دواوين المتنبى والبحترى وأبى تمام ، عمدنا فيه لأشرف أجناس الشعر ، وأحقها أن يحفظ ويروى ، ويوكل به الهمم ، ويفرغ له البال وتصرف إليه العناية ، ويقدم فى الدراية ، وتعمر به الصدور ، ويستودع فى القلوب ، ويعد للمذاكرة ، ويحصل للمحاضرة ؛ وذلك ما كان مثلا سائرا ، ومعنى نادرا ، وحكمة وأدبا ، وقولا فصلا ، ومنطقا جزلا ، وقد أخرجنا من ذلك من هذه الدواوين خيار الخيار ، وما هو كوسائط العقود ، وأناسى العيون (١) » .

وبدأ عبد القاهر مختاراته بشعر المتنبى ؛ لأن أمثاله أسير ، ومعانيه فيها أغزر ، ومعارفه فى الحكم والآداب أكثر (٢) » ؛ ثم ثنى بالبحترى ، وختم بأبى تمام ، لأنه كان على مذهب أستاذه : القاضى الجرجانى ، فى تقديم المتنبى على الطائيين ، ثم تقديم البحترى على أبى تمام .

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٢٠١ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولا يقف عبد القاهر عند إيراد بيت الحكمة بل يورد ما يكتنفها ، وإن لم يكن حكمة ، وأحيانا يكون المختار كله حكما ؛ بل قد يأتى بشعر المدح . الذى يصور مثلا عليا يحسن أن يقتدى بها ، بل قد يختار رثاء يدل على هذه المثل ، وربما اختار من شعر الهجاء ، ما يمثل رذيلة ينبغى ألا تكون (١) .

وقد يختار من القصيدة بيتا ، أو اثنين أو ثلاثه ؛ وأقصى ما وصل إليه اختياره من القصيدة ثمانية عشر بيتا .

وقد تكون الأبيات التى يختارها غير متناسب بعضها مع بعض ؛ بل قد يكون البيت فى واد ، وتاليه فى واد آخر ، كالبيتين اللذين اختارهما من قصيدة البحترى فى رثاء المتوكل ، وهما .

وهل أرتجى أن يطلب الدم واتر
يد الدهر ، والموتور بالدم واتره

مغلب آراء ، تخاف أناته
إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

فالبيت الأول يذم المنتصر بن المتوكل ، والبيت الثانى يتحدث عن المعتز بالله ، وقبله فى القصيدة بيت يمهد له ، هو :

وإنى لأرجو أن ترد أموركم
إلى خلف من شخصه ، لا ينادره

وعبد القاهر يقف عند حدود الاختيار ، لا يتجاوزه إلا فى النادر الذى لا يكاد يذكر عندما يعلق أو يشرح :

وما اختاره عبد القاهر يمتاز كله بالسلاسة وجمال العبارة ، ولم يشذ عن ذلك إلا النادر ، كقول أبى تمام :

فالمجد لا يرضى بأن ترضى بأن
يرضى المؤمل منك إلا بالرضا

وهو بيت يضرب به البلاغيون مثلا لشدة تماسك كلمات النص تماسكا يجلب له الثقل ، فضلا عما يأتى به تكرير الكلمة من الملل (١)

٣ — وتناثرت آراء عبد القاهر فى هؤلاء الشعراء الثلاثة وغيرهم فى كتابيه : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة كما تناثرت فيهما آراؤه فى غيرهم من الشعراء ، وفى الشعر الجيد والردىء .

* * *

فهو يستشهد على القواعد البلاغية بشعر المتنبى ، كلما أمده شعره بنموذج لتلك القواعد ؛ فنراه فى تعريف جزأى الجملة ، ومايستفاد من هذا التعريف يستشهد بقوله :

وتوهموا اللعب الوغى ، والطعن
فى الهيجاء غير الطعن فى الميدان

وعند تناسى التشبيه يورد قول المتنبى :

بدت قمراً ، ومالت خوط بان
وفاحت عنبراً ، ورنت غزالا

---

(١) عبد القاهر الجرجانى للدكتور أحمد أحمد بدوى ص ٣٦ .

(١) المرجع السابق ص ٣٦ — ٤٣ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إلى غير ذلك ، مما يطول به وجه استقصائه .

وفى كثير من الأحيان لا يقف عند إيراد البيت أو شرحه ، بل يثنى عليه ، ويحلله ، ويبين سر جماله ، فنراه مثلا عند ما تحدث عن الفصل بين الجمل قال : ومن الحسن البين فى ذلك قول المتنبى :

وما عفت الرياح له محلا
عفاه من حدا بهم ، وساقا

ثم شرح سر الفصل بين شطرى البيت ، فقال : لما نفى أن يكون الذى يرى به من الدروس والعفاء من الرياح ، وأن تكون التى فعلت ذلك ، وكان فى العادة إذا نفى الفعل الموجود الحاصل عن واحد ؛ فقيل : لم يفعله فلان ـ أن يقال : فمن فعله ؟ قدر كأن قائلا قال : قد زعمت أن الرياح لم تعف له محلا ، فما عفاه إذاً ؟ فقال مجيبا له :

« عفا من حدا بهم وساقا » (١)

وحينا يوازن بينه وبين غيره من الشعراء ، كما فعل عندما أورد قوله :

يزور الأعادى فى سماء عجاجة
أسنته فى جانبيها الكواكب

مع قول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقول عمرو بن كلثوم :

تبنى سنابكها من فوق أرؤسهم
سقفا كواكبه البيض المباتير

إذ مضى فى الموازنة قائلا : التفصيل فى الأبيات الثلاثة كأنه شىء واحد ؛ لأن كل واحد منهم يشبه لمعان السيوف فى الغبار بالكواكب فى الليل ؛ إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموقع ولطف التأثير فى النفس ما لا يقل مقداره ، ولا يمكن إنكاره ؛ وذلك لأنه راعى ما لم يراعه غيره ، وهو أن جعل الكواكب تهاوى ؛ فأتم الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف ، وقد سلت من الأغماد ، وهى تعلو وترسب ، وتجىء وتذهب ، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها فى أثناء العجاجة ، كما فعل الآخران ، وكان لهذه الزيادة التى زادها حظ من الدقة تجعلها فى حكم تفصيل بعد تفصيل ، وذلك أنا ، وإن قلنا : إن هذه الزيادة ، وهى إفادة هيئة السيوف فى حركاتها ، إنما أتت فى جملة لا تفصيل فيها ، فإن حقيقة تلك الهيئة لا تقوم فى النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة ؛ وذلك أن تعلم أن لها فى حال احتدام الحرب ، واختلاف الأيدى بها فى الضرب اضطرابا شديداً وحركات بسرعة ؛ ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة ، وأحوالا تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة ، والارتفاع والانخفاض ، وأن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل ،

(١) دلائل الإعجاز ص ١٨٤ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويقع بعضها فى بعض ، ويصدم بعضها بعضا ، ثم إن أشكال السيوف مستطيلة ؛ فقد نظم هذه الدقائق كلها فى نفسه ، ثم أحضرك صورها بلفظة واحدة ، ونبه عليها بأحسن التنبيه وأكمله بكلمة ، وهى قوله (تهاوى) ، لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها ، وكان لها فى تهاويها تواقع وتداخل ، ثم إنها بالتهاوى تستطيل أشكالها ، فأما إذا لم تزل عن أماكنها فهى على صورة الاستدارة [1] .

وهكذا نرى عبد القاهر مع إعجابه بالمتنبى لم يمنعه ذلك من أن يفضل غيره عليه إذا كان الحق مع سواه .

وفعل ذلك مرة أخرى ، عندما رأى أن الكلمة تحسن فى موضع ، ولا تحسن فى موضع آخر ، ومثل لذلك بكلمة (شىء) فى قول أبى حية :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة
تقاضاه شىء لا يمل التقاضيا

قال عبد القاهر : فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول ، ثم انظر إليها فى بيت المتنبى :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه
لعوقه شىء عن الدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم [1] .

وإذا كان شعر المتنبى يحتاج فهمه فى بعض الأحيان إلى روية ، فذلك محمود عند عبد القاهر ، متى كان المعنى الذى يصل إليه القارئ يساوى التعب فى الحصول عليه ؛ لأنه من المركوز فى الطبع أن الشىء إذا نيل بعد الطلب له ، أو الاشتياق إليه كان نيله أحلى ، على شريطة ألا يكون فى الوصول إليه إرهاق يكد النفس على غير طائل ، فعند ما تقف عند قول المتنبى :

فإن تفق الأنام وأنت منهم
فإن المسك بعض دم الغزال

وقوله :

وما التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال

وقوله :

رأيتك فى الذين أرى ملوكا
كأنك مستقيم فى محال

تجد أنك تحتاج إلى تريث وروية لإدراك المعنى الذى قصد إليه الشاعر ، ولكنك بعد أن تصل إلى المعنى لا تندم على الوقت الذى بذلته للحصول عليه ، فضلا عن أن التعب فى الوصول إلى المعنى ليس ناشئا من تعقيد فى اللفظ ، ولا يكلفك فى الوصول إليه عنتا عنيفا ، ومشقة لا تحتمل [1] .

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٥١ .

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٩ .

(١) أسرار البلاغة ص ١١٨ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فإذا كان الخفاء ناشئا من التعقيد لم يرض عنه عبد القاهر وذمه ، وذلك لأن اللفظ لم يرتب الترتيب الذى بمثله تحصل الدلالة على الغرض ، فاحتاج السامع إلى أن يطلب المعنى بالحيلة ، ويسعى إليه من غير الطريق ، كقول المتنبي :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها
من أنها عمل السيوف عوامل

وعلق عبد القاهر على هذا البيت قائلا : وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذى يجب مثله ، وكدك بسوء الدلالة ، وأودع المعنى لك فى قالب غير مستو ولا ملاس ، بل خشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجه عسر عليك ، وإذا خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحسن (١) .

ولا يقف نقده للمتنبي عند حد التعقيد ، بل إنه عند ما أورد قوله :

يترشفن من فمى رشفات
هن فيه أحلى من التوحيد

لم يرقه معناه ، ورأى أن الشاعر أبعد ما يكون من التوفيق ، إذ دعته شهوة الإغراب إلى أن يستعير من الهزل والعبث من الجد ، ويتغزل بهذا الجنس (٢) .

بل إن عبد القاهر قد يتعمق فى المعنى ، حتى يدرك لونا من الخطأ خفيا فى شعر المتنبي لا يبدو لأول وهلة ، كما وقف عند قوله :

ولا تشك إلى خلق ، فتشمته
شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

فقد رأى فيه عبد القاهر خطأ فى غاية الخفاء ، وذلك أنك إذا قلت : لا تضجر ضجر زيد ، كنت قد جعلت زيدا يضجر ضربا من الضجر ، مثل أن تجعله يفرط فيه أو يسرع إليه ، هذا هو موجب العرف ، وإذا كان كذلك اقتضى قوله : « شكوى الجريح إلى الغربان والرخم » ـ أن يكون ههنا جريح قد عرف من حاله أن يكون له شكوى إلى الغربان والرخم ؛ وذلك محال ؛ وإنما العبارة الصحيحة فى هذا أن يقال : لا تشك إلى خلق ، فإنك إن فعلت كان مثل ذلك أن تصور فى وهمك أن بعيرا دبراً (١) كشف عن جرحه ، ثم شكاه إلى الغربان والرخم (٢) .

ونحن ، وإن كنا لا نوافق عبد القاهر على هذا النقد ، بل نرى المعنى الذى قصد إليه المتنبي واضحا لا خفاء فيه ـ نتبين أن حبه للمتنبي لم يحل بينه وبين أن يدل على ما يراه فيه من عيب ونقصان ؟

الدكتور أحمد أحمد بدوى

(١) المرجع السابق ص ١٢٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٣ .

(١) دبر : به قرحة .
(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٢٤ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المجتمع الاشتراكي في ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

٦ ـ ملكية المال

المال ـ في نظر الإسلام ـ كل ما له قيمة شرعية ، أو بعبارة أخرى كل ما له منفعة مباحة تقوم بحسب الحاجة إليها ، أو بحسب ما لها من ندرة ، أو ما بذل فيها من عمل وخبرة ، فالخنزير والخمر وما إليهما من المحرمات لا قيمة لها ـ في تقدير الإسلام ـ لأنها ليست من المباحات ، والعمل ليس وحده هو الأساس لتقدير قيمة الأشياء وإن كان أهم الأسس التي تقوم بها قيمتها ، فندرة الماس بالنسبة إلى غيره من الأحجار الكريمة وندرة الذهب بالنسبة إلى الفضة ، والفضة بالنسبة إلى غيرها من المعادن ، كالنحاس والحديد ، لها دخل كبير في تقدير القيمة وقياس المنفعة ، والحاجات تتفاوت بين الضروريات والكماليات ، ويختلف تأثيرها في القيمة على حسب ذلك التفاوت بين درجات الضروريات ودرجات الكماليات . كما يختلف باختلاف مستويات الدخول والقدرات الشرائية والظروف الاقتصادية والاجتماعية ومن رحمة الله بالإنسان أن سخر له كل ما حوله ويسر له كل ما تقوم عليه حياته ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة . فالماء . والهواء . وأشعة الشمس . ونور القمر وكثير من النعم العامة التي تقوم عليها الحياة لا تسمى مالا ولا تقوم بمال ، مع أنها إذا قيست منفعتها بمنفعة أنفس ما نشتريه ونقتنيه كان القياس عبثا أو لونا من الجنون والخبل ، ومما يذكر في هذا السياق أن ابن السماك كان عند الرشيد ورآه يهم بالشرب ، فقال له : على رسلك يا أمير المؤمنين : بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها . . ؟ فقال : بنصف ملكي . قال : اشرب هنأك الله . فلما شربها قال : أسألك بقرابتك من رسول الله لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها . ؟ قال بجميع ملكي . قال ابن السماك : إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير بألا ينافس فيه ، ويروى أنه قال : إن ملكا يضيع بين بولة وشربة لجدير بأن يزهد فيه . .

ويلاحظ مع ذلك ـ أن من رحمة الله

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كذلك - كثرة الكمية فى الأشياء التى تعد ضرورية كالملح والنار والمواد الغذائية. وهذه على شدة الحاجة إليها ميسرة للناس يحصلون عليها بثمن زهيد، ولولا ما ركز فى طباع بعضهم من الطمع والجشع والأثرة ما وجد الفقراء ما يجدون من جهد وعناء فى سبيل الحصول على القوت، ولعل هذا بعض ما يفهم من قوله صلى الله عليه وسلم: إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنياؤهم، فإن ذلك يفهم منه أن جهد الفقراء وجوعهم سببه صنع الأغنياء.

وإذا كان ذلك فى المسلمين - وهم الذين فرض الله لفقرائهم حقوقا فى أموال أغنيائهم - فهو فى غيرهم أظهر وأكثر.

فالوفرة والكثرة فى المواد الغذائية والموارد الطبيعية موجودة فى هذه الأرض التى خلقها الله «وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها»، وفى هذه السماء التى تمدنا بالدفء والضوء والماء المبارك كما يفهم من قوله تعالى: «ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج»، فما قيل - ويقال - فى المواد الغذائية والموارد الطبيعية من أن فيها ندرة نسبية، وأنها لا تلبى الزيادة المطردة فى عدد السكان كلام سداه ولحمته الأوهام وتفكير يمليه الشعور بالعجز والقصور، والمتأمل فى قوله تعالى: «وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم» وقوله سبحانه: «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» يجد صدق ذلك فى التجارب التى رآها الناس وفى الواقع الذى يراه «هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب»، «هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور».

ولكن الشيطان كما يقول الله فيه: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا»، فالبخل - وهو بعض ما يطلق عليه اسم الفحشاء - والخوف من الفقر - والناس من خوف الفقر فى فقر - مما يزينه الشيطان ويحسنه للإنسان - ثم الإسراف فى حب المال وما ينشأ عنه أو يتصل به من الطمع والشره كما يفهم من قوله تعالى: «وتأكلون التراث أكلا لما. وتحبون المال حبا جما»، كل ذلك وما إليه يسبب اختلال التوازن فى المجتمع، وسوء التوزيع فى الثروة وبغى الناس بعضهم على بعض، واستعلاء بعضهم على بعض، واستغلال بعضهم لبعض وقد لفت القرآن نظر الناس إلى هذا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الواقع الذي تنطق به الشواهد ، وتتظاهر عليه الأدلة وهو أن المال بكل صوره وأنواعه لله وحده ، فهو خالق الحب والنوى وهو خالق الذهب والفضة ، وهو الذي ينزل الماء من السماء فتحيا به الأرض بعد موتها ، وهو المنعم بكل مايتمتع به الناس من نعم ، فمن حقه عليهم أن يعبدوه ويحمدوه ، وأن يذكروا نعمه عليهم ويشكروا إحسانه إليهم ويشعروا بأنهم ومايعملون مدينون له بالحياة وبالقدرة على العمل ، في هذه الحياة ، وإذا كان المقام لا يتسع لعرض الآيات التي تلفت الأنظار إلى ذلك ، فحسبنا من ذلك أن نذكر قوله تعالى : « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » ، وقوله قبل ذلك : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » ، وقوله سبحانه : « أفرأيتم ماتحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التي تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم » .

١ — ويفهم من هذه الآيات وغيرها أن عمل الإنسان — وإن يكن أمثل سبيل إلى الملكية — لا يعطيه مطلق التصرف وتمام الملكية ، لأن المال في حقيقة أمره مال الله كما يقول سبحانه : « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » . والإنسان وما ملكت يداه لله ، بل إنه وعمله كما يقول جل شأنه : « والله خلقكم وما تعملون » ، فالملكية التي تفهم من إضافة المال إليه ملكية نسبية ناقصة لا ملكية حقيقية تامة ، والرزق الذي يسعى إليه ويستولي عليه إنما هو فضل من الله جل شأنه ، وهو بالنسبة إليه مستخلف فيه كما يقول سبحانه : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . وكما يقول جل شأنه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » . فالملكية في الأرض وفي المال مجرد استخلاف لا يخرج به المستخلف عن طاعة المستخلف وهو الله « الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » .

٢ — وعلى هذا الأساس يجب الحجر على السفهاء استجابة لأمر الله كما يفهم من قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

جعل الله لكم قياما » . فإن المال عصب الحياة ، بل هو كما يفهم من الآية الكريمة الأمر الذى تقوم عليه حياة الناس وصلاح أمورهم وأحوالهم .

٣ — وعلى هذا الأساس - كذلك - يظهر الفرق بين وضع المال فى المجتمع الإسلامى ووضعه فى غيره من المجتمعات ، فهو كما قلت فى بعض ما كتبت : « ليس ملكا للدولة حتى تجور على الأفراد فتأكل جهودهم وتلغى وجودهم كما هو الشأن فى الشيوعية ، وليس ملكا للأفراد حتى يحق لهم اختزانه واحتجانه أو الاستئثار بمنفعته » . واستغلاله فى وجوه الكسب الحرام كما هو الشأن فى الرأسمالية .

وقد أنذر الله الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بعذاب أليم ، وصور هذا العذاب بقوله : « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » . أما وجوه الكسب التى أحلها الله ووجوه الإنفاق التى شرعها فنعرض لها فى مقال آخر إن شاء الله .

عبد الرحيم فوده

وثيقة همام بن منبه

يحفظ لنا التاريخ وثيقة تاريخية علمية قيمة ، لما أملاه أبو هريرة على تلميذه همام ابن منبه أحد أعلام التابعين الثقات ، من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جمعه همام فى صحيفة أو صحف أطلق عليها اسم (الصحيفة الصحيحة) وسماها بالصحيحة على مثال (الصحيفة الصادقة) لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما - وحق لهمام أن يسميها بالصحيحة ؛ لأنه كتبها عن صحابى خالط رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع سنين ، وروى عنه الكثير .

وقد حفظ التاريخ هذه الصحيفة كاملة ، كما رواها ودونها همام عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ فقد عثر على هذه الصحيفة الدكتور المحقق محمد حميد الله فى مخطوطتين متماثلتين فى دمشق وبرلين ، ووجدت لهذه الصحيفة نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم (١٩٨١ حديث) ويزيد الثقة بصحيفة همام ما ثبت من أن الإمام أحمد قد نقلها بتمامها فى مسنده ، كما نقل الإمام البخارى عدداً كثيراً من أحاديثها فى صحيحه فى أبواب شتى .

(عن كتاب أبو هريرة راوية الإسلام)

للأستاذ محمد عجاج الخطيب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الاسلام وتحديد النسل

للأستاذ محمـــود الشرقاوى

هل أسميها ، كما يفعل بعض المشفقين من الكلمات الحاسمة الواضحة ، مشكلة « تنظيم النسل ؟ ... » ، أم أسميها باسمها الحقيق الحاسم : « تحديد النســل ؟ ... » ، إنى أوثر الحسم والصراحة ، ولو كانا بعيدين عن الإشفاق والدبلوماسية .

هى مشكلة ، ما فى ذلك شك ، مشكلة حادة تشمل العالم كله بوجه العموم . ووطننا : الجمهورية العربية المتحدة ، بوجه الخصوص . ولكى ندرك وجه الحدة فى هـذه المشكلة ، من الوجهة العالمية ، نذكر أن حلقة دراسية أقيمت فى كاليفورنيا ، بالولايات المتحدة الأمريكية ، لدراسة زيادة النسل فى العالم ، فحذر العلمـــاء البريطانيون والأمريكيون المشتركون فيها من « الخطر الداهم الذى يتهدد البشرية نتيجة الزيادة المطردة الرهيبة فى عدد السكان » .

وقال العالم النووى (هاريسون براون) : إن سكان الولايات المتحدة سيزيدون إلى مليار نسمة فى منتصف القرن القادم ، وقال الفيلسوف الكبير ، ألدوس هاكسلى : إن التقدم التكنولوجى « العلمى » لن يكفى لمواجهة مشكلة تزايد السكان إلا « بكارثة [1] » ، أو معجزة ، وقدر أن عدد سكان العالم سيرتفع إلى ستة مليارات نسمة فى نهاية هذا القرن ، وأكد ضرورة إقناع الرجال والنساء فى العالم كله بضرورة تحديد النسل .

وكلمات « الخطر الداهم » ، و « المعجزة » ، و « الكارثة » فى السطور السابقة ليست من عندى . بل هى أوصاف جرت على لسان هؤلاء العلماء الكبار .

ومن دلائل الإدراك العام لهذه المشكلة العالمية أن الوكيل المساعد لشئون المنظمات الدولية بالولايات المتحدة تقدم بمشروع دولى لتحديد النسل . وفى هذا المشروع إحصاء يقول : إن سكان العالم تضاعفت نسبة زيادتهم السنوية عما كانت فى سنة ١٩٤٥ .

---

(١) يقصد بالكارثة حرباً ذرية تقتل مئات الملايين من البشر .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وعند مناقشة هذا المشروع فى هيئة الأمم المتحدة ظهر كثير من الحقائق المفزعة عن تزايد السكان ومستوى حياة الناس فى كثير من بلاد العالم : من هذه الحقائق أن الدول « الغير النامية » تفوق فيها نسبة الزيادة عن مثلها فى الدول المتقدمة بنحو ٧٠ فى المائة . وهذه الدول الغير النامية لا تستطيع - بحكم أوضاعها وثروتها - إعاشة هذه الملايين الكثيرة من سكانها ومواليدها عيشة معقولة ، بل تكاد تعجز عن استبقاء الحياة لهؤلاء المواليد .

ومن هذه الحقائق ما أبدته كثير من الدول نحو المشكلة ، حيث ترى هذه الدول : (أن سرعة تزايد السكان قد ترتبت عليها مشاكل خطيرة بالنسبة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وأنه لابد من اتخاذ إجراء عاجل لعلاج هذه المشكلة) .

ومن دلائل الإدراك لهذه المشكلة أيضا ذلك الكتاب الذى أصدره فى السنة الماضية العالم الإيطالى : « كارلو تشيبولا » تحت اسم : « التاريخ الاقتصادى لسكان العالم » . ومن الحقائق المعروفة التى أفاد منها هذا الكتاب فى إقرار وجهة نظره أن الثورة الصناعية أدت إلى الانخفاض المستمر فى نسبة الوفيات بين الأطفال فى الفترة ما بين سنتى ١٩٠٠ و ١٩٥٠ . وبناء على ذلك زاد عدد السكان زيادة فاحشة تصل إلى درجة الخطر على الجنس البشرى كله . وهذا الانخفاض المستمر فى نسبة عدد الوفيات لم يعد قاصراً على الدول الصناعية المتقدمة : « فالدول الزراعية أيضا أصبحت تحصل على أحدث الأدوية والخبرات الفنية والعلمية ، مما أدى إلى خفض نسبة الوفيات بينما نسبة المواليد ما زالت على ما هى عليه ، ويسمى الأستاذ كارلو تشيبولا هذه الظاهرة المزدوجة « بالانفجار السكانى » ويضرب لذلك الأمثال فيقول : « ... فى سيلان تم القضاء على بعوض الملاريا فيما بين سنتى ١٩٤٥ - ١٩٥٢ مما أدى إلى خفض نسبة الوفيات من ٢٢ إلى ١٢ فى الألف ، بل إنه فى عام واحد : « ١٩٤٦ - ١٩٤٧ » انخفضت هذه النسبة من ٢٠ إلى ١٤ فى كل ألف . وهنا تظهر أهمية تحديد النسل . ذلك لأنه من المستحيل رفع مستوى المعيشة لمثل هذا الشعب إذا استمرت زيادة السكان فيه بأسرع من تطور وسائل الإنتاج » (١) .

وفى وطننا العربى ، وبخاصة الجمهورية العربية المتحدة ، نجد هذه المشكلة قائمة حادة ، فقد أثبتت الإحصاءات أن عدد السكان فيها

---

(١) الترجمة عن كتاب الأستاذ « كارلو » للأستاذ رجائى نجيب .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

زاد خلال السنوات العشر الأخيرة بمتوسط نصف مليون فرد فى كل سنة : كان سكان الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٢ واحداً وعشرين مليونا ونصف المليون ، فأصبحوا فى سنة ١٩٦١ قريباً من سبعة وعشرين مليونا .!

ويتنبأ الإخصائيون بأن الزيادة فى السنوات العشر القادمة ستكون بمتوسط مليون نسمة فى كل سنة . ! وأن سكان الجمهورية يصلون بعد سنتين إلى تسعة وعشرين مليونا وثلث المليون ، وفى سنة ١٩٧٠ إلى تسعة وثلاثين مليونا ونصف ..! وفى سنة ١٩٧٥ يصل تعدادهم إلى خمسة وأربعين ونصفا ..! وفى سنة ١٩٨٥ يكون سكان جمهوريتنا اثنين وخمسين مليونا ونصف المليون .

الكم والكيف :

وهذه الملايين الكثيرة التى يتوقع ، أو يقرر الإخصائيون أن يصل إليها سكان جمهوريتنا العربية فى هذا الزمن القصير - وهو قصير جداً بالنسبة لحياة الأمم - هذه الملايين الكثيرة لم يكن يضيرنا ، بل لعله كان خيراً لنا ، أن تضمها جمهوريتنا لو أنها تجمع إلى جانب هذا « الكم » الكثير « كيفا » معقولا فى صحته وثقافته ومستوى الحياة التى يحياها . بل لو أنه يجد احتمالا معقولا لاستبقاء حياته واستنقاذها من الموت المبكر وسطوة المرض والحرمان من الغذاء الكافى والرعاية الضرورية . بله فرص الصحة والقوة والحياة المكتملة السعيدة الهانئة والعمر الطويل والثقافة التى لابد أن ينالها فى حياتنا المعاصرة كل إنسان : « فنسبة الوفيات فى البلاد الزراعية ما زالت أعلى مما هى عليه فى البلاد الصناعية حتى يومنا هذا . ففى الوقت الذى نجد فيه أن نسبة الوفيات فى البلاد الصناعية أقل من ١٥ فى الألف نجد أنها فى بلد زراعى كالهند مثلا ١٢٧ فى الألف ، وذلك سنة ١٩٥٠ » . وقد أشير شىء من هذه الأحاديث والأرقام فى « مؤتمر الميثاق الوطنى » الذى عقد بالقاهرة فى ربيع هذا العام .

العبرة ، إذن ، فى سعادة الفرد واستقرار الأسرة وسلامة الدولة وقوتها ورخائها ليس بالكم ، بل بالكيف : ففى إحصاء أصدرته هيئة الأمم المتحدة عن سنة ١٩٦٢ أن أعلى نسبة للولادة فى العالم توجد فى « ساحل العاج » وأقل نسبة توجد فى السويد من شمال أوربا ، ولا يمكن أن يقال إن الفرد والأسرة والدولة فى الأولى أكثر سعادة واستقراراً وسلامة وقوة ورخاء منها فى الثانية .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وكانت فى الهند ملايين تسد عين الشمس ، كما يقول المثل ، ومع ذلك رأيناها إلى عهد قريب قبل أن تحقق استقلالها ، يحكمها بضعة آلاف من دولة لا يقرب عدد سكانها من خمسين مليونا .

* * *

هذا وجه المسألة ، أو المشكلة ، الواضح المثير الذى يدركه وينذر به العارفون .

ولكن المسألة لها وجه آخر يمثل الناحية الدينية ، أو الفقهية ، التى تتحكم فى مدارك الملايين من أبناء الوطن العربى حيال هذه المشكلة . والتى نجد مداركهم بسببها مدارك خاطئة . وتدرتهم حيال أوضاعهم الخاصة وأوضاع أسرهم قدرة عاجزة أو مشلولة .

وقد أحسست صرامة هـــذا الإدراك الخاطئ العوق وقسوته من قضية أسرة دعيت لمناقشتها فى التلفزيون العربى : تتلخص القضية فى مشكلة من هذا النوع تهدد سلامة الزوج والزوجة وستة من أولاد لا يستطيع أبوهم أن يربح فى كل شهر أكثر من اثنى عشر جنيها ، وتجد الأسرة كلها من جهد الحياة وسطوة الحرمان والقلق ما جعل الرجل وزوجه يضيق صدراهما بحياتهما وبأولادهما ، فلما سألت الزوجة : لماذا لا تكتفيان بأولادكما الستة . ؟ . هل يمانع زوجك فى ذلك . ؟ . قالت : كلا ، بل نحن متفقان على ذلك ، ولكن : « العلماء قالوا حرام » .

وهنا جوهر المسألة الذى نعالجه فى هذا المقال ، والذى جعلنا نصف هذه المشكلة بأن أساسها الجهل ، فلو كانت هذه الزوجة وزوجها يعرفان حكم شريعة الإسلام الحق فيها لما ضاقت بهما الحياة كل هذا الضيق ، هذا الضيق الذى أوقعهما وأسرتهما فيه حكم الفقهاء لا حكم الله . أو حكم بعض الفقهاء الغير الفاقهين ، هذا البعض من الفقهاء الذين لا يفقهون أوضاع الحياة المعاصرة ومشاكلها ، ولا يفقهون سعـــة الشريعة ومرونتها ومطاوعتها .

ولو أن هؤلاء الفقهاء فقهوا شريعة الإسلام كما فقهها الشاطبى حين يقول : (إنا وجدنا الشارع قاصداً لصالح العباد ، والأحكام العادية تدور معه حيثما دار ، فترى الشىء الواحد يمنع فى حال لا تكون فيه مصلحة ، فإذا كان فيه مصلحة جاز) [1] ولو أنهم تمثلوا قول النبى عليه السلام : (إن هذا الدين يسر لا عسر ، وما شادّ هذا الدين أحد إلا غلبه) .

---

(١) الموافقات للشاطبى : ص٢١٣ من الجزء ٢ « السلفية ١٣٤١ » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لو أنهم فقهوا هذا وفقهوا أن الله قد : « خلق السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت » ، كما هي آية الإنجيل ، لسعد الآلاف والملايين من المسلمين بحياتهم وحياة أسرهم وأولادهم .

* * *

تناكحوا تناسلوا :

يستند دعاة : « هذا حرام » من الفقهاء الغير الفاقهين إلى حديث النبي عليه السلام : (تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة) ، وزاد بعضهم : (حتى بالسقط) ، ومع أن هذا الحديث لا يحرم تنظيم ، أو « تحديد » النسل فإن إسناده ضعيف (١) .

وهذا الحديث الذي يردده القوم لم يمنع كباراً من العلماء أن يفتوا بجواز التوقف عن النسل في حالات كثيرة ، منها عسر النفقة ومشقة الحياة والسعي على الرزق ، ومنها الخوف على صحة الزوجة ، بل منها خوف المرأة على جمالها . . ! ولو كان الآباء قادرين على نفقة أولاد آخرين .

كانت الوسيلة الوحيدة المعروفة لمنع الحمل في عصر النبي عليه السلام هي « العزل » - أي أن يعزل الرجل ماءه عند المباشرة -

وفي جواز هذا العزل وردت أحاديث صحيحة (*) ، من ذلك حديث رواه أبو سعيد الخدري : أنه وجماعة من الصحابة سألوا النبي عليه السلام عن العزل فقال : (لا عليكم ألا تفعلوا ما كتب الله خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون) (١) .

ومن ذلك حديث جابر رضي الله عنه : (كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن ينزل) .

وقد روى ابن القيم أن رخصة منع الحمل قال بها عشرة من الصحابة ذكر أسماءهم : والإباحة مذهب الشافعي ومالك وأهل الكوفة والحنابلة ، عند « خوف الضرر » أو عند « الحاجة » ، كما يقول الحنابلة .

أما إباحة المنع عند خوف المرأة على جمالها ، كما أشرنا ، فقد ذكره الغزالي في الإحياء ، ذكر أسبابا للمنع ، منها الحاجة ومشقة الحياة ، ثم قال : (من الأسباب الداعية للعزل : استبقاء المرأة وسمنها لدوام التمتع » (٢) .

---

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ، ص ٧٠ من الجزء ٢ « الحلبي » .

(*) راجع فصل « المرأة والأسرة » من كتابنا « تقويم الفكر الديني » .

(١) ص : ١٥٨ من صحيح مسلم ، الجزء ٤ « باب حكم العزل » وفي هذا الباب أحاديث أخرى .

(٢) ص ٤٨ الجزء ٢ « دار الكتب العربية » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والغزالى حين يجعل من الأسباب التى تبيح تحديد النسل : « استبقاء سمنة المرأة » إنما يقصد ، بلا شك ، الإبقاء على جمالها ، لأن سمنة الجسم فى ذلك الوقت كانت من مميزات الجمال ومقاييسه عند المرأة والرجل .

وإذا كان « العزل » هو الوسيلة الوحيدة التى كان يعرفها المسلمون على عهد النبى ولم يمنع ممارستها ، فإذا ظهرت فى عصرنا أو فى غيره وسائل أخرى يقرر الأطباء أنها لا تضر المرأة ولا الرجل وتحول دون البويضتين أو تفسد عمل إحداهما - مما يمنع تخلق الجنين وتكوينه - فلا شك فى أن حكم العزل ينسحب على هذه الوسائل أيضا . بل إنها أحق منه بالإباحة لأن بعض الأزواج والزوجات يتضرر من العزل .

إياكم وكثرة العيال :

وآخر ما نذكره ونذكر به هؤلاء القوم أثر عن صحابى جليل القدر ، كان من كتاب الوحى للنبى عليه السلام ، « ينهى » عن كثرة الإنجاب إذا كانت المصلحة فى ذلك : (... عن ذاخر المعافرى أنه شهد صلاة الجمعة ... فأقام المؤذنون الصلاة ، فقام عمرو ابن العاص على المنبر فرأيت رجلا ربعة ... فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً . فسمعته يحض على الزكاة وصلة الأرحام ويأمر بالاقتصاد و « ينهى » عن الفضول وكثرة العيال ، وقال فى ذلك : (يا معشر الناس ، إياكم وخلالا أربعة فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى المذلة بعد العزة : إياكم (وكثرة العيال) ، وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ... إلخ) (١) .

وقد قرأت وأنا أكتب الصفحة الأخيرة من هذا المقال أن وزير الصحة يعد مشروعا ضخما : « لتحديد النسل على مستوى المجتمع كله فى الجمهورية العربية المتحدة » ، إدراكا منه بمدى الخطورة التى تتعرض حياتنا ويتعرض لها مجتمعنا من الإباحة والإطلاق .

وقد قال الرئيس جمال عبد الناصر كلمة حق فى « مؤتمر الميثاق الوطنى » الذى ناقش هذا الموضوع من قبل . هذه هى الكلمة : « إن تحديد النسل لا يمكن أن يفرض بقانون » .

وهنا يبدو واجبنا - نحن رجال الدين - واضحا ملحا . فإن مشكلتنا هذه ، كما قلنا ، أساسها الجهل ؟

محمود الشرقاوى

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ٢٣٩ طبع ليدن ١٩٢٠ ، والنجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة ص ٧٢ - ٧٤ الجزء ١ « دار الكتب المصرية » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ذو النّون المصرىّ
بينَ التصوّف والأدب

للأستاذ عبد الجليل شلبى

شخصية ذى النون كما تبدو من سيرته والأقاصيص الكثيرة التى نسجت حوله تصور خاصية من أهم خصائص العقلية المصرية وخلقا من أثبت أخلاقهم وأعمقها كما تصور لونا من ألوان الخيال الشعبى المصرى الفنان - ونحن إذ نقرأ سيرة ذى النون العابد المتصوف والآخذ بحظ من الفكر الفلسفى فى عصره - نقرأ فيها أيضا صفات الأدب المصرى والاتجاهات التى يميل إليها المصريون فى قصصهم والشخصية المثالية التى يكبرونها ويمجدونها - فالعقلية الشعبية قد تصور الأشخاص الذين تكبرهم فى صور خيالية شائقة - وليست فى الواقع صورهم ولكنها الصور التى يحبها الناس ويتمنون وجودها .

وقد امتاز الشعب المصرى منذ أقدم عصوره التاريخية إلى وقتنا الحاضر بعمق تدينه وسعة خياله - فهو شديد الإيمان بالغيبيات ويركن إلى المعجزات والخوارق ويميل إلى تصديقها - وهو يترقب عناية السماء عند المشاكل التى تواجهه - وهذه صفة قد تكون عامة فى الشرقيين - ولكنها فى المصريين أثبت وأعمق - والخيال المصرى يسند هذه النزعة الدينية من قديم ؛ فصورها فى أقاصيص جذابة فاتنة ولون قصصه بألوان زاهية ونوع عناصر الحياة فيها فجعلها متباينة الصور والأحداث ، وفى الأساطير المصرية القديمة التى صورت حياة الآلهة فى الدنيا وحساب الناس فى الآخرة دليل واضح على قوة الدين والخيال جميعا عند المصريين .

وفى العصر الإسلامى كانت شخصية ذى النون محوراً لهاتين الصفتين - فهو رجل دين وتصوف أشبع رغبات المصريين وهاج خيالهم فنسجوا حوله أقاصيص كثيرة جعلت سيرته صورة من الأدب المصرى أكثر مما صورت حياته الحقيقية .

ظهر ذو النون فى القرن الثالث الهجرى وتوفى سنة ٢٤٥ هـ - ويقول الكندى : إن المصريين مالوا إلى التصوف منذ نهاية القرن الثانى فذو النون إذن جاء فى موعده إذ ظهر فى الوقت الذى صبت فيه العقلية المصرية إلى مثله - وزاد من قدره أنه كان أستاذاً لكثير من كبار الصوفية الذين كانوا بدورهم أساتذة لصوفية آخرين ، ويقول القشيرى إنه « أوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

اسمه ثوبان بن إبراهيم ويكنى أبا الفيض ، وقيل اسمه الفيض بن إبراهيم واشتهر باسم ذى النون ، كان أبوه نوبيا وكان حارسا لبعض المعابد المصرية فى إخميم ، وله ثلاثة بنين آخرين ويقال إن ذا النون هذا كان يعرف اللغة المصرية القبطية لغة قدماء المصريين تعلمها من الكتابة التى على المعابد ومن بعض الرهبان الذين كانوا يعرفونها ، ويقال إنه رأى مكتوبا بأحد المعابد « يقدر المقدرون والأقدار تضحك » فأعجبته هذه العبارة ، ثم كانت سبب تصوفه وزهده ، وليس من البعيد أن يعرف ذو النون اللغة القبطية ، وهو يعيش بين البرابى ويخالط الرهبان ، وليس من البعيد أن يكون على معبد مثل هذه العبارة ، ولكننا نلاحظ أن القصة تحتذى تماما قصة سقراط إذ رأى مكتوبا على واجهة معبد دلفيا عبارة « اعرف نفسك » فاتخذها أساس فلسفته ، ثم إن ضحك الأقدار وسخريتها من أطماع الناس ليست حكمة عميقة ولا مما يندر سماعه ، وقد سأل بعض الناس ذا النون وهو فى حلقة درسه عن سبب توبته فذكر أنه وهو فى بعض أسفاره رأى قبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض فانشقت الأرض وخرج منها سكرجتان إحداهما من ذهب والأخرى من فضة ، وفى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء فجعلت تأكل من هذه وتشرب من تلك فقلت حسبى ولزمت الباب إلى أن قبلنى ربى !! ويدل هذا على أن القصة الأولى غير متفق عليها ولكنها أدنى للقبول ومادتها عقلية ، أما هذه ففضلا عن سذاجتها يبدو فيها العنصر المادى وخيالها ساذج . إذ القبرة حتى لو كانت غير عمياء لا تميز بين إناء الذهب والفخار ويستوى عندها حب السمسم والشعير وليس فى ثمين الطعام وفاخر الإناء لها تكريم .

وقد كان ذو النون على أى حال ذا مكانة ملحوظة فى عصره وله أثر عظيم فى الفكر المصرى - فهو أول من تكلم فى الأحوال والمقامات والحب الإلهى والكشف والعلم الباطن (١) ففتح بهذا بابا واسعا للتصوفة من بعده ، وضع مادة خصبة للفاطميين وأتباعهم - كما أنه أثار خصومات كثيرة حوله واتهم بالزندقة من فقهاء مصر - والفقهاء أعداء الصوفية فى كل مكان - حاربه عبد الله بن الحكم شيخ المالكية وابن أبى الليث شيخ الحنفية والقائل بخلق القرآن وسببت هذه مشكلة أخرى لذى النون إذ رفض الإقرار بهذا الرأى وقد سيق إلى بغداد فسجن هناك مدة حتى أطلق المتوكل

(١) يقال إنه تتلمذ على شقران العابد وقيل على فاطمة النيسابورية - ويقال - ولعله أصح - إنه أخذ عن الرهبان شيئا من فلسفة العقوهية والأفلاطونية الحديثة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

سراحه وأعاده إلى مصر مكرما وقد أعجب المتوكل وعظه وبكى لسماعه .

أما أسفاره التى كانت مادة خصبة للأقاصيص التى نسجت حوله فهى أسفار واسعة حقا فقد سافر إلى المغرب وبيت المقدس وأنطاكية واليمن ومكة والمدينة عدا تنقلاته الكثيرة فى صحارى مصر وطور سينا ، ويظهر أنه حج غير مرة وفى حجه قابل كثيرا من رجال التصوف فأخذوا عنه واستفادوا من علمه ويذكر القشيرى عددا كبيراً لهؤلاء الذين أخذوا عنه واستفادوا من علمه وتصوفه (١) .

وإذا نحن راجعنا القصص التى نسجت حول رحلاته نجد فيها عنصرين بارزين : هما عنصر الماء وعنصر النساء . وإن كان هناك أقاصيص تخلو منهما .

قيل إنه خرج للحج فى سفينة وكان بها غلام معه بضيعة فى قفص ونام ذو النون فى جانب من السفينة حتى أيقظه ركابها فأخبروه أن الغلام فقد صرة بها نقود له ويتهمه بسرقتها إذ أنهم فتشوا ركاب السفينة جميعاً فلم يجدوها ولم يبق غيره - وسأل ذو النون الغلام أحق ما يقولون ؟ فأجاب نعم - فلم يقل ذو النون شيئا وإنما انحنى على جانب السفينة فتوضأ من النهر وصلى ركعتين وأشار إلى البحر فاذا هو ممتلئ بحيتان تتجه كلها نحو السفينة فاغرة أفواهها حتى خاف الركاب على أنفسهم وتمنوا لو أنهم لم يقولوا له شيئا - وكان كل حوت فى فمه صرة فأخذ ذو النون واحدة منها أعطاها الغلام وقال خذ هذه بدلا من صرتك التى فقدت .

فالنصر المائى كما نرى له أثر ملحوظ فى خيال القصة .

ومرة ثانية وذو النون بطريق الحج فى أرض الحجاز انقطع عن الركب وضل الطريق ، فلما أجهده السير أوى إلى شجرة فى سفح الجبل ليستريح فى ظلالها . وحين غابت الشمس وأظلم الليل رأى شابا يخرج من كهف فى الجبل فعمد إلى كومة رمل فركلها بقدمه فانبجست منها عين تبض بالماء فشرب منها وتوضأ ثم قام يصلى ، وقام ذو النون من خلفه وهو لا يشعر به فما زال يتابع صلاته حتى انشق عمود الفجر فنهد الشاب وقال : ذهب الليل بما فيه وأتى النهار بدواهيه خسر من أتعب جسمه فى غير مرضاة ربه ولما أخبره ذو النون بذبته قال ويحك وهل يقطع الله مدده عن عباده ؟ ثم قال اتبعنى فتبعه ذو النون فكانت الأرض تطوى طيا تحت أقدامهما حتى قرأت لهما القافلة ،

---

(١) كانت هذه الأسفار فرارا من مضايقة الفقهاء واضطهاد الحكام ولعل هذا السبب شوق الناس فى الأقطار الأخرى إلى لقائه .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ودنوا منها ، فقال له هؤلاء قومك فألحق بهم ولم يره ذو النون بعد .

فقد حرصت هذه القصة على إبراز العنصر المائى حتى فى جوف الصحراء . ويبدو أنها وضعت فى وقت متأخر تقدمت فيه الصوفية العملية وأخذ دعاتها يستحثون الناس أن يروضوا أنفسهم على مشقاتها - من الخلوة والانقطاع للعبادة وسهر الليل - ويقبين لهم ما يترتب عليها من ظهور الخوارق وتذليل الصعاب - فهى تشبه أن تكون طريقة مدرسية وقد اختارت عبارات موحية - مثل حديث الشباب عن الليل وما فيه من خير - ومثل قوله خسر من أتعب جسمه فى غير مرضاة ربه - وهذا المنحى التعليمى يبدو فى كثير من قصص ذى النون .

أما العنصر النسائى فيبدو فى قصص أخرى ولكن يلاحظ أن معظم النساء اللائى قابلهن ذو النون كن نوبيات أو حبشيان أو ذوات لون أسود بوجه عام ، ولعل ذلك بسبب التأثر بشخصية النوبية ولبيان أن سكان الجبال والصحارى أقرب إلى التدين من سكان المدن وقد كانت رحلات ذى النون بين الجبال والصحارى فكان من المناسب أن يقابل بها هذا النوع من النساء كما أنه قابل هناك رجالا أيضا من هذا النوع .

بل واحدة متوحشة لاتكاد أن يشغلها شىء عن ذكر الله وقد تحدث إليها فكان من كلامها .

ذكرنا وما كنا لننسى فنتذكر

ولكن جمال الحق يبدو فيبهر

ثم أخذت فى الشهيق والزفير وذهلت عنه وعن حديثه .

ورفضت إحداهن أن ترد عليه فلما ألح عليها قالت وما للرجال أن يكلموا النساء لولا ضعف عقلك لشدخت رأسك بشىء .

فالأقاصيص الكثيرة التى حفظتها لنا كتب التصوف عن ذى النون تصور لنا لونا من الأدب الصوفى الشعبى فى مصر وتبرز بوجه خاص ما يمتاز به المصريون من عمق التدين وسعة الخيال .

لون آخر من الأدب تظهره سيرة ذى النون وهى الحكم والنصائح التى أثرت عنه ، ولا نجد ما يحملنا على الشك فى شىء منها ، وهى تصور أكثر من كل شىء تهوين الدنيا وتدعو للعزوف عن متاعها شأن الفكر الصوفى عند جميع المتصوفين . والحق أن أثر ذى النون المباشر فى الأدب يماثل من نصائح وحكم أقل من الأثر غير المباشر الذى تصوره أقاصيصه المتنوعة ، وعلى أى حال فشخصية ذى النون مزيج من التصوف والأدب !

عبد الجليل شلبى
عضو المكتب الفنى
لمجمع البحوث الإسلامية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الملاحم والمطولات الإسلامية في الشعر العربي

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

— ٢ —

وربما كان من الأسباب التي جعلت الشعر الجاهلي لا ينحو منحى الحديث عن الآلهة أن الجاهليين لم يكونوا متعصبين تعصباً أعمى لأوثانهم كما أنهم لم يخضعوا لنظام الكهنوت الذي ساد أوربا في العصور الوسطى.

ومما يدل على أن الوثنية لم تكن متغلغلة في حنايا الجاهليين ولا سيما الشعراء منهم، وأنها إنما كانت محاكاة أكثر منها عقيدة راسخة، ولا سيما في أخريات العصر الجاهلي، لا أدل على ذلك مما ورد في أشعار جاهلية كثيرة من نظرات السخرية والتحقير للأوثان.

ومن ذلك ما روي أن امرأ القيس قد حطم صنم قبيلته «ذا الخلص» عندما خذله في الاستقسام، ونهاه عن الخروج للحرب حين قتل أبوه، قال:

لو كنت ياذا الخلص الموتورا
مثلي، وكان شيخك المثبورا
لم تنه عن قتل العداة زوراً [1]

وكذلك ما روي عن رجل من بني ملكان أنه ذهب إلى صنم قبيلته «سعد» ليتبرك به غير أن إبله قد نفرت وتفرقت في كل وجه فاستنجد الرجل الصنم فلم ينجده، فأخذ حجراً ورماه به وهو يقول: «لا بورك فيك من صنم نفرت إبلي، فلما جمع إبله ورحل قال:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا
فشتتنا «سعد» فلا نحن من سعد

إلى غير ذلك.

أما اليونان فقد كانوا في جاهليتهم مخلصين في عباداتهم ومعتقداتهم، ولهذا شرع هوميروس في استمداد المعونة من ربة الشعر بل جعلها هي المنشدة صاحبة الفضل وكأنه ينقل عنها، ويملي على الملأ ما تلقته من فيض روحها، إذ يقول في مطلع الإلياذة:

ربة الشعر عن أخيل من فيلا
أنشدينا، وأروي احتداما وبيلا

ثم يقول في مطلع النشيد الثاني والعشرين:

دجا الليل، والآراب والناس نوم
ولكن «زفسا» نابذ سنة الكرى

---

(١) راجع: الفتوة عند العرب.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولقد حذا حذو هوميروس أكثر الشعراء في جاهلية اليونان والرومان في مطالع ملاحمهم وقد ظلت محاكاة هذه المطالع عند بعض شعراء أوروبا بعد انتشار المسيحية واختفاء عقيدة ربات الأغاني كما فعل « ملتن » الشاعر الانجليزي في مطلع الفردوس المفقود إذ قال : Sing Heavly Muse (١) .

على حين أنا لا نجد مثل ذلك في ذلك في مطالع الشعر الجاهلي أو الإسلامي لأن الشعراء لم يجدوا ما يحاكونه غير الغزل والتشبيب .

وكيفما كان الأمر فان أحد من المؤرخين لم يستطيع حتى يومنا هذا أن يجزم بأن العرب في جاهليتهم لم ينشئوا شعراً دينياً يتحدثون فيه عن الآلهة ومناصرتها إياهم ... وقد ذكر ابن الكلبي في كتابه « الأصنام » ما استطاع أن يعثر عليه من أشعار قليلة عن أصنام الجاهلية . ثم أشار إلى تحوج الرواة في العصر الإسلامي وإبادتهم لما ينافي العقيدة الإسلامية وكذلك قال أبو عمرو ابن العلاء (٢) ما انتهى إليكم مما قالت العرب في جاهليتها إلا أقله ، ولو جاءكم وافر لجاءكم علم وشعر كثير (٣) .

رأى أفلاطون في خرافات الملاحم :

أما عن الخرافات السائدة والأساطير التي ملأت الإلياذة ، فليست مما يقدح في الشعر العربي خلوه من أمثالها لأنها لا تمت إلى الواقع كما أنها لا تعطي القدوة الحسنة مما حدا بأفلاطون التحذير من إذاعتها ولا سيما بين الناشئين ، استمع إليه في هذا التحذير :

إن أول ما يجب علينا هو السيطرة على ملفق الخرافات واختيار أجملها ونبذ ما سواه ثم نوعز إلى الأمهات والمرضعات أن يقصصن ما اخترناه من تلك الخرافات ، وأن يكيفن بها عقول الأطفال أكثر مما يكيفن أجسادهم ، إنني أعني ما رواه « هسيودس » و « هوميروس » وغيرهما من الشعراء .

إن ما يجب أن يلام عليه هؤلاء الشعراء ، هو خلق قصص قبيحة فيها أشنع الكذب ، كما أخبر « هسيودس » بما صنع « أورانوس » وإن « كرونس » انتقم منه .

وكذلك ما روى عن كرونس ، فلو صح ذلك ، وكانت معاملة ابنه له حقائق بينة ، فلا أرى من الحكمة أن تتلى على السذج والأطفال دون أي تحذف ، بل على العكس أرى أنه يجب حذفها بتاتا ، وإذا مست الحاجة إلى تلاوتها فلتتل سرا ، وعلى أقل عدد ممكن .

(١) مقدمة الالياذة ص ٢٠٣ .
(٢) توفي سنة ٥٤٠ .
(٣) عن يونس بن حبيب . كتاب نزهة الالباب لابن الأنباري .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إن أمثال هذه الخرافات لا يجوز أن تتلى فى مدينتنا ولا تقولن لسامعنا الفتى - إذا أبحنا له سماعها - إنه لم يجن فكرا إذا ارتكب شر الموبقات أو إذا عاقب والده على جرائمه بأشنع صنوف الهوان، لأنه لم يفعل - عندئذ إلا ما فعله كبار الآلهة قبله » (١)

فأى أسف نحس به لفقدان شعرنا العربى أمثال هذه الخرافات ، وهذا رأى أفلاطون فيها ؟.

وأى نقص نشعر به إذا علمنا أن شعراء أوربا الذين حاولوا محاكاة الإلياذة من أمثال « ملتن » لم يتجهوا إلى مثل هذه الأساطير الخرافية ؟ ؟ .

الشعر القصصى عند العرب وخصائص الملحمة :

أن الشعر العربى ملىء بأخبار البطولات ووصف الحياة البدوية ، ونكران الشاعر لذاتيته أثناء الإنشاء لأن من خصائص الشعر القصصى أن يتحدث الشاعر فيه عن غيره وإذا اضطر الشاعر للتعبير عن ذاته فبقدر . « وقد كان هوميروس خليقا بالثناء لأنه كان الوحيد من بين الشعراء الذى لا يجهل متى يتدخل بنفسه فى القصيدة ... » (٢) .

والدكتور طه حسين لا ينكر وجود الشعر القصصى فى الأدب العربى بل إنه يعجب من الذين ينكرونه ويغفلون عنه ، استمع إليه يقول : (١)

« خصوم القديم ، وأنصار الحديث ، يزعمون أن الأدب العربى كان حسنا فى عصره وأصبح الآن غير ملائم ، ذلك أن هناك فنونا من الآداب لم يعرفها الأدب العربى .

فالشعر العربى فقير بالنسبة للشعر الأجنبى فليس فيه شعر قصصى ولا تمثيلى كما كان عند اليونان ، وإذن فلا بد من العدول عن هذا الأدب القديم إلى الأدب الحديث .

وهذا غريب ، فلست واثقا كل الثقة من أن الأدب العربى يخلوا من القصص ، وأخشى أن يكون ممن يجحدون وجود الأدب القصصى عند العرب إنما جحدوه لأنهم لم يحققوا بالضبط معنى الأدب القصصى ، فالذين يقرءون الشعر الجاهلى أو ماصح منه ، والذين يقرءون الشعر الأموى كشعر جرير والفرزدق والأخطل يلاحظون أن مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصى موجودة فى الشعر العربى : فأهم ما يمتاز به الشعر القصصى أن شخصية الشاعر تفنى ، وأن هذا الشعر يكون

---

(١) ملخص بتصرف من ترجمة جمهورية أفلاطون لحنا خباز ص ٤٨ / ٤٩ الطبعة الثالثة المطبعة العصرية .

(٢) فن الشعر لأرسطو ترجمة عبد الرحمن بدوى ص ٦٩ - مكتبة النهضة ١٩٥٣ .

(٣) من حديث الشعر والنثر - مطبعة المعارف سنة ١٩٣٦ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مرآة لحياة الجماعة . وأنا أستطيع أن أؤكد أنا لا نعرف شعرا يصور حياة الأمة أصدق تصوير ويضطرنا أن نلمسها بأيدينا كالشعر العربي . . .

وإذا قرأتم قصيدة من شعر جرير أو الفرزدق أو الأخطل فأنتم ترون العرب في البادية وتسمعونهم يتحدثون ، وتحسون حياتهم كما تحسون أنفسكم ، ولا تكادون تلمسون شخصية الشعراء في أشعارهم ، فإذا لم توجد عندنا « إلياذة » أو « أودسا » فليس من شك أن ما أدته الإلياذة والأودسا قد أداه الشعر العربي القديم من تصوير الحياة الاجتماعية وحياة الأبطال .

ثم من الذي يستطيع أن ينكر أن في أدبنا العربي القصصي جمالا ليس أقل من جمال الإلياذة والأودسا ؟ وليس ذنب الأدب العربي ألا يقرأه الناس ولا يعرفونه .

فماذا ينكر إذن الدكتور طه حسين ؟ ؟ أهو ينكر وجود آلهة في الشعر العربي ؟ إن أحداً لم يقل بهذا ، وإن أحداً لم يعد هذا نقصاً في الشعر العربي اللهم إلا متعصب جاحد من أمثال « رنان » .

أيتحاشى الدكتور طه تسمية الشعر القصصي في الأدب العربي بالملحمة ؟ ؟

لعل أبرز ما يجعله يتحاشى ذلك هو طول القصائد ، فليس في الشعر الجاهلي ولا ما جاء بعده ما تبلغ إحدى قصائده ما بلغته الإلياذة .

طول الملحمة وتعدد قصائدها :

ولكن هل من الضروري أن تكون الملحمة قصيدة واحدة ؟

قال الدكتور زكي المحاسني (١) بعد أن تحدث عن الملاحم في شعر الأندلسيين وخص منها بالبيان ملحمة ابن عبد ربه قال : « فراح ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد بين القرنين التاسع والعاشر للميلاد ينظم ملحمة على بحر الرجز ذي القوافي المنطلقة جاءت في خمسمائة وخمسين بيتاً قسمها على سني الحكم والحوادث التي جرت للملك الناصر في الأندلس حتى انتهى حكمه » .

وقد رجعت إلى هذه الملحمة في العقد الفريد (٢) ، ومطلعها :

سبحان من لم تحوه أقطار
ولم تكن تدركه الأبصار
أقول في أيام خير الناس
ومن تحلى بالندى واللباس

(١) من محاضرة له « أدب الملاحم والملحمة العربية » مطبعة الأزهر سنة ١٩٦٠

(٢) ج ٤ - وابن عبد ربه توفي سنة ٣٢٧ - ص ٥٠٠ إلى ٥٢٧ - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ومن أباد الكفر والنفاقا
وشرد الفتنـــة والنفاقا

وأكتفي بنموذج من قوله في أول غزوة :

ثم انتحى جيان [1] في غزاته
بعسكر يسعر من حماته
فاستنزل الوحش من الهضاب
كأنما حملت من السحاب
فأذهلت مراقبها سراها
وأقبلت حصونها تداعى
لها رماها بسيوف العزم
مشحوذة على دروع الحزم

وهكذا يسير في سرد الغزوات كل عام إلى عام ٧٢٢ هـ .

ثم أشار الدكتور المحاسني إلى ملحمة أبي طالب بن عبد الجبار الذي كان يسمى متنبي المغرب في الأندلس والتي عنى بنشرها ابن بسام صاحب الذخيرة [2] . . قال : « وقد وضع الشاعر الأندلسي هذه الملحمة الحقيقية إبان حروب العرب الأندلسيين مع الأسبان وما كان يدور بينهم من المعارك . ومن هذه الملاحم الأولى الأندلسية اقتبس الشعراء الجوالون من الأسبان والفرنسيين في القرون الوسطى ملاحمهم . ومنها تعلم أصحاب الشعر (التروبادوري) أناشيد الملاحم » ... وبعد أن سرد عدداً من الشعراء الفرنسيين والأسبان الذين تأثروا بهذه الملحمة العربية قال :

« ولو امتد الزمن بالعرب في الأندلس فلم يغب عنها حكمهم وملكهم لأمدوا الأدب بالملحمة العربية الكبرى . ولئن رأينا أدبنا في القديم لم يعرف الملحمة بمعناها في أدب الغرب ، فقد ازدحم بشعر حربي وقصصي . لكنهم وزعوا المنابع والمصادر ونوعوا الأوزان والأشكال .

ومن هذا الشعر نستطيع أن نقيم أول ملحمة عربية ، وإن لم يكن واضعها واحداً . كما بنيت الإلياذة والأوديسة وهما ليستا لمؤلف واحد ، وإنما نظمهما الشعراء الهوميريون ثم توالت نسبتهما لهوميروس »[1] .

وقال في موضع ثان : « ولو رجعنا إلى قصائد الشعراء الذين شهدوا المعارك أو وصفوها لرأينا فيها ما يشبه الملاحم عند الأمم العريقة في هذا الفن »[2] .

وبعد أن ضرب أمثلة من الشعر العربي في العصر العباسي عند أبي تمام وأبي فراس والمتنبي . . قال :

« لئن كانت تهاويل الأساطير في الخيال ، وخوارق الحدثان شروط في الملاحم القديمة

(١) إحدى مدن الأندلس .
(٢) المجلد الثاني : القسم الأول طبع كلية الآداب ٤٠٥ / ٤٣١ وابن بسام توفي ٥٤٢ .

(١) ص ٢/٣٠ . (٢) ص ٤

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والملاحم الغربية فإنى لا أرى هذا جديراً بالملحمة العربية العتيدة ، فإن عصرنا الحاضر لم يعد أهلا للأساطير ، وديننا الحنيف قضى عليها منذ أقدم العصور ، ونهضتنا العربية الزاهنة ملأى بالحقائق التى لا مكان للخرافة فيها »(١) .

فالدكتور زكى المحاسنى يعتبر أن الملحمة العربية يمكن أن تؤلف من قصائد عديدة لشعراء عديدين ، وأن الشعر العربى فى ماضيه وحاضره ملىء بقصائد البطولات وأوصاف البيئة العربية ومجتمعها ... التى يمكن أن تكون منها ملاحم . وهو يرى أن مثل هذا العمل ليس باليسير الذى يستطيع أن يقوم به فرد ، لذلك قال :

« لئن عز على الفرد أن ينهض بصنع الملحمة العربية ، فما أشد الحاجة إلى هيئة أدبية حرة أو حكومية تؤلف شتات ملحمتنا ، فتجمع موضوع أناشيدها وحوادثها الخارقة من تاريخنا الحافل ، وشعرنا الحماسى والحربى الذى يضمه تراثنا الفكرى على اختلاف العصور . أما الملحمة الحديثة التى تصور بطولة الحرب على تفاوت الأمصار والديار للخلاص من استعمار طويل ، فإن قصصها الدامية ، وروائع وثباتها ستؤخذ من حياة المناضلين ، وفداء الشهداء ، واقتحام المعارك من الرجال والنساء والأطفال فى كل أرض عربية جديرة بالتخليد فى ملحمة منتظرة .

هذه الملحمة ستصور أناشيدها وقصيدها الثورة العربية فى مصر ، وفى سورية ، وسائر ديار العروبة ، والنكبة الكبرى التى وقعت فى فلسطين المغصوبة ، وعدوان الغرب الأثيم على بور سعيد ، وكيف انهزم العدو فارتد مدحورا »(١) .

ومن قبل وجدنا أبا يزيد القرشى(٢) يذكر سبعة من شعراء بنى أمية ويسميهم « شعراء الملاحم » ويختار من أشعارهم سبع قصائد كبرى تشترك فى تصوير الحياة البدوية وما فيها من متع وبيئة أيام الصبا ، ويتخللها ذكر وقائع الجاهلية وما كان بين القبائل المختلفة من صراع وإليك هؤلاء الشعراء ومطالع ملاحمهم : (٣)

(١) ص ٩

(١) ص٩/١٠ ولقد حدثنى الدكتور المحاسنى فى ذلك قال : إننى معتزم عمل ملحمة تضم أشتات التاريخ العربى وتسجل البطولات العربية الإسلامية وإننى قد بدأتها من معركة ذى قار ، ونظمت فعلا خمسمائة بيت . وأنا أرجو أن يكون الدكتور المحاسنى مستمراً فى تكملة هذا العمل المجيد .

(٢) فى جمهرة أشعار العرب ـ توفى سنة ١٧٠هـ .

(٣) لفظه « ملحمة » فى عهد ابن يزيد القرشى لم تكن تنصرف إلى معنى الملحمة كما عرفته أوربا حديثا لأن الإلياذة لهوميروس لم تكن معروفة للعرب ، واستعملت اللفظة حينذاك بمعناها اللغوى فلم يكن منتظراً أن نجد خصائص الملحمة الحديثة فيما ساقه القرشى من نماذج .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

١ ــ الفرزدق :[١]

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف
وأنكرت من عفراء ما كنت تعرف

٢ ــ جرير بن عطية الخطفى :[٢]

حى الغـــداة برامة الأطلالا
رسما تقادم عهده فأحالا ..

٣ ــ الأخطل [٣]

تغير الرسم من سلمى بإقفار
وأقفرت من سليمى دمنة الدار

٤ ــ عبيد الراعى : [٤]

ما بال دلك بالفراش مذيلا
أقذى بعينك أم أردت رحيلا ؟

٥ ــ ذو الرمة : [٥]

ما بال عينك منها الماء ينسكب
كأنه من كلا مفرية سرب

٦ ــ الكميت بن زيد الأسدى : [٦]

ألا لا أرى الأيام يقضى عجيبها
بطول ، ولا الأحداث تفنى خطوبها

٧ ــ الطرماح بن حكيم : [١]

قل فى شط نهروان اغتماضى
ودعانى هوى العيون المراض

فإذا ما انتقلنا إلى ما بعد العصر الأموى وجدنا قصائد مطولة من أشهرها : « ملحمتا ابن عبد ربه الأندلسى وابن عبد الجبار اللتين أشرنا إليهما ، ومقصورة ابن الحسن ابن حازم القرطاجنى التى بلغت الألف بيت .

وعلى كل ضوء ما تقدم نستطيع أن نطلق لفظ ملحمة على كل قصيدة كبرى أو مجموعة من القصائد تكون موضوعية ذات طابع واحـــد فى وصف المعارك والبطولات وتصوير المجتمع ، ثم يكون وصفها بحسب طبيعة موضوعها فتقول مثلا : ملحمة عربية إسلامية ...

سعد الدين الجيزاوى

(البحث بقية)

---

(١) ١٠٩ من الأبيات .
(٢) ٤٩ بيتا .
(٣) ٥٢ بيتا .
(٤) ٩٥ بيتا .
(٥) ١١٤ بيتا .
(٦) ٥٥ بيتا .

---

(١) ٤٢ بيتا .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من معاني القرآن

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير »

سبحان اسم مصدر يقوم - كما يقوم المصدر - مقام الفعل، ومعناه التنزيه والسمو بمقام الله عن أن يرقى إليه نقص أو عيب أو ما يشبه النقص أو العيب تقول سبحت الله تسبيحا بمعنى نزهته وأبعدته عما لا يليق بكمال جلاله وجماله، والإسراء هو السير ليلا. تقول سريت وأسريت بمعنى سرت فى الليل، وإنما ذكر الليل بعد ذلك منكراً للإشارة إلى أن الإسراء كان فى بعض من الليل.

والمسجد الحرام: هو الكعبة وما يتصل بها، والمسجد الأقصى هو بيت المقدس ووصف بأنه « الأقصى » لأنه لم يكن وراءه مسجد آخر:

والبركة: النماء وزيادة الخير.

والمراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم بشهادة القرائن مثل قوله تعالى: « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ».

المعنى: التنزيه التام المطلق لله الذى سار بعبده محمد - عليه السلام - فى بعض أوقات ليلة من المسجد الحرام - وهو الكعبة وما يتصل بها فى مكة - إلى المسجد الأقصى - وهو بيت المقدس - الذى بارك الله ما حوله من الأماكن فكثر فيها الخير. وكان متعبد الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كان هذا الإسراء ليريه الله بعض آياته ودلائل رحمته به وتأييده له إنه السميع لكل ما يقال، البصير بكل ما يرى ويبصر، ويفهم من هذه الآية ما يلى:

١ — أن اقتران التسبيح بالإسراء يشعر بأن الإسراء كان بالجسد والروح كما هو ظاهر قوله: « بعبده » وأن قدرة الله فوق الشك والتهم. فهو منزه عن أن يوصف بعجز أو نقص.

٢ — أن اقتران المسجد الأقصى بالمسجد الحرام فى هذه الآية وفى تلك الليلة يشعر بما ينبغى لهما فى قلوب المسلمين. فكلاهما بارك فيه كما يفهم من هذه الآية ومن قول الله فى المسجد الحرام: « إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا ».

٣ — إن حصول الإسراء فى وقت كان قبل الهجرة وفى ظروف كان النبى والمسلمون يعانون فيها الضيق والألم والأذى من المشركين ... يدل على أنه كان بشرى بأن سلطان الإسلام سيمتد ظله إلى المسجد الأقصى وما حوله من ربوع الشام.

٤ — وقد كان ذلك فى عهد عمر رضى الله عنه وتحققت البشارة السارة؟

عبد الرحيم فودة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مولانا أزاد والخلافة

للأستاذ عبد المنعم النمر

— ٣ —

أما الرسالة الثانية من مولانا أبي الكلام للسيد رشيد رضا والتي عثر عليها بين أوراقه فتاريخها ٢٨ مايو سنة ١٩١٠ وهي صادرة من كلكتا كذلك ومكتوبة على ورق كتب في أعلاه ـ الهلال ـ وهو اسم المجلة التي كان يصدرها . وكتب تحت هذا العنوان : « مدير مسئول ورئيس تحرير . أبو الكلام » وكانت هذه الرسالة ردا على رسالة من السيد رشيد رضا ، وقد اعتذر في أولها عن تأخره في الرد عليه ، بكثرة مشاغله وأسفاره لحاجات إسلامية ، وقال فيها : إنه مع ذلك سيوجز القول إلى أن يجد فراغا من الوقت ويكتب له في تفصيل .

وهذه الرسالة أيضا ، تدور حول موضوع الخلافة ، ويظهر أن رسالة السيد رشيد إليه كانت في هذا الموضوع نفسه ، لما يظهر أيضا أن السيد رشيد أثار في رسالته ، مساوئ الخليفة والحكام الأتراك ، الذين كانوا يستبدون بالعرب ، ويضطهدونهم ويسومونهم الخسف والهوان حتى اضطروهم لكراهية الخلافة والانقضاض عنها ، وقيام الحركات التحررية للتخلص من حكمها . كما بين فيها أن اتكال المسلمين العرب على دولة الخلافة يدعوهم لإهمال شئونهم ، واستعداداتهم الحربية ، للدفاع عن أوطانهم ، واقترح لذلك أن يهب العرب ، ويقوموا قومة رجل واحد لإحياء مجدهم ... كما اقترح من ناحية ثانية أن يجتمع المسلمون في مؤتمر عام ، يبحثون شئونهم ، وينظمون جهودهم للنهوض ببلادهم وقد جاء رد مولانا أزاد تعليقا على هذه الاقتراحات . . كما سترى . . وهذا هو الرد :

كلكتا في ٢٨ مايو سنة ١٩١٣

حضرة المصلح الجليل ـ متعه الله بطول بقائه ـ

تحية وسلاما وبعد ، فقد شرفني كتابكم الكريم ولكن يا للندامة فإني لم أستطع رد الجواب ، ولم يكن هذا عن تكاسل وتوان بل عن انشغال البال لتراكم الأعمال وعروض الترحال ، في بعض حاجات إسلامية عامة ، فعفواً عن هذا التأجيل وصفحا .

طال الأمد ولم أرزق بعد ما أجلت الجواب لأجله ولا أدري إلى متى لا أرزق ؟ فأجمل لكم القول في بعض ما أود عرضه عليكم ، وإذا تخففت عني وطأة الأعمال ، وحصلت الفرصة فسأتبع هذا الإجمال بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

١ — إنكم ترون أن اغترار العالم الإسلامى بالدولة العثمانية والاتكال عليها من أهم العوامل التى أعمتهم عن شئونهم وأقعدت بهم عن سد ثغورها ، فإذا دهمته النكبة السياسية لم يكن له بها قبل ، وإن وقد العرب ودومهم : باستعمال الولاة الطغاة الذين سفكوا الدماء وهدموا البناء ، وأهلكوا الضرع وأبادوا الزرع ، وبإغلاق أبواب التعليم فى وجوههم حتى الحربية لأكبر جناية سياسية جناها الأتراك على العالم الإسلامى بل على أنفسهم أيضا من حيث إنهم مسلمون .

وإنه قد آن أن يقوم العرب قومة واحدة لإحياء تاريخهم المجيد واستعادة مجدهم التالد وعزهم السالف .

إن هذا الرأى وزين وإنى معكم فى هذا القول ، لكن علينا بالتأنى والتأمل ، فإن الطريق ذات غور ونجد وإنه يمر من مجاهل سياسية يجول فيها أغوال أوربا ويفتكون بالأريب الحذر فكيف بالبسيط الغرير . . ولاسيما أن المسلمين قد بلغ منهم الغرة والبساطة والجهل والخيانة إلى أنهم كلما قاموا للإصلاح ازدادوا فسادا ، أو حاولوا إغلاق باب للأجانب فتحوا آخر .

٢ — رأيت اقتراحكم الجليل من تأليف مؤتمر إسلامى عام فحسبت كأن هناك ترجمانا يترجم لأذنى ما يشعر به قلبى ، وكيف فإنه كم من ليالى أتيت الفراش لأنام وأنا غارق فى هذه الفكرة فتشرد النوم ولم أزل أفكر إلى أن ينبثق الفجر ، فأرحب بهذا الاقتراح العظيم أبرزه الله فى معارض الوجود .

لكن أين يحتفل (ينعقد) هذا المؤتمر ؟ هذه مسألة عويصة فالآن الأجدر به إما الهند أو مصر ، وكلاهما تحت سلطان الانكليز الذين هم أعدى أعداء الإسلام فإنى على يقين بأنهم لا يدعوننا نعمل فى هذين القطرين عملا نافعا ، على كل حال الموقف حرج ، والوقت ضيق ، والعدو على الباب ، ثم إن الشئون والأحوال معروفة لدى كل منا ، والأفكار متحدة ، والطريق أمام أعيننا ، فيا حبذا لو تركنا الاقتصار على تداول الأفكار ونشر الاقتراحات والمشروعات ، ونأخذ فى السير إلى المرام .

ساعونى إن قلت لكم : بأنكم لستم من المطلعين على أحوال الهند لبعدكم عنه ، وإن نواب وقار الملك ليس من رجال هذا الأمر نعم هنا رجال آخرون خيراً كفاء لهذا الأمر فأية خدمة تريدون أن يقوم بها أهل الهند تفضلوا بتفصيلها .

٣ — قد عزمت على نشر جريدة عربية يكون اسمها « الاتحاد الإسلامى » وذلك لتوطيد دعائم الأخوة الملية مع العالم الإسلامى ، ولاسيما العرب الذين هم مهد الإسلام وإخبارهم عن أحوالنا وأفكارنا واستخبارنا عن أحوالهم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأفكارهم ، فهل نرجو من حضرتكم المساعدة فى هذه الخدمة الجليلة للعالم الإسلامى ؟ إن الحركة العربية والمسألة اللامركزية أساء إليكم (فيكم) ظن مسلمى الهند وهم يعدون هذه الحركة دسيسة من دسائس الأجانب لبتر عضو آخر من جسم الدولة الإسلامية لكنى أقول بكل اختيار إن رأيى فيكم لم يتزحزح عن موقفه السالف قيد شعرة ، ولا أزال أراكم مصلحا مخلصا لوجه الله داعيا إلى القرآن الحكيم ومحييا السنة النبوية وقامع البدع والخرافات وأدعو الله أن يكشف لى القناع عن حقيقة مسائل سياسية أرى فيها غير ماترون ، وإن شئتم نشر هذا الكتاب فلكم ذلك والسلام .

مخلصكم الوفى

أبو المكارم الدهلوى

لعلك لمست فى هذا الخطاب مدى حصافة مولانا أبى الكلام وتعقله فى تناول الأمور وعدم تعصبه تعصبا أعمى لرأيه الذى يؤمن به فإنه بالرغم من تعصبه للخلافة ومجومه على كل من يدعو إلى تمزيق دولتها وتشتيت وحدة المسلمين حولها ، لم ينكر على السيد رشيد دعوته إلى أن يهب العرب من نومهم ويقوموا قومة رجل واحد لاسترجاع أمجادهم وإحياء تاريخهم ... ولم يبخس العرب حقهم ولم ينكره عليهم ، وإنما قال عن رأى السيد رشيد فى هذه الناحية : إنه رأى رزين وإنى معكم فى هذا ، ولكنه - برغم شبابه الثائر الفائر - كان بعيد النظر عميق التفكير وكأنه كان ينظر فى كتاب مفتوح أمامه فرأى أن العرب حين يحاولون هذا ويعملون على استرجاع أمجادهم وبالتالى على التخلص من الدولة العثمانية التى تحكمهم وتظلمهم فإنهم سيقعون فريسة بين مخالب أحوال أوربا ، ويكون العرب حينئذ قد تخلصوا من ظلم الدولة الإسلامية لهم ليسلموا أنفسهم إلى ظلم الأجانب عنهم واستبدادهم بهم .

وهذا هو الذى وقع بعد ذلك حين قام العرب بثورتهم فى الحجاز بقيادة الشريف حسين وأمن للانجليز ووثق بعهودهم وسار معهم ضد الأتراك حتى حقق لهم النصر ، فنكثوا بعهودهم واقتسموا مع فرنسا البلاد العربية التى كانت تحكمها دولة الخلافة ، وظلت هذه البلاد ترزح طويلا تحت نير الاستعمار وتعانى من بلائه وشروره ما تعانى حتى الآن حتى البلاد التى استقلت منها ، لايزال الغرب يتربص بها ويحاول أن يقضى على استقلالها ويحطم نهضتها .

ولهذا نصح مولانا أبو الكلام بالتأنى والتأمل فيما دعا إليه السيد رشيد رضا لأن الطريق وعرة شائكة والعرب حين يسيرون إلى غايتهم فإنهم يمرون بأحوال أوربا الذين يفتكون بالجماعات الحذرة المستعدة فكيف بالمسلمين فى بساطتهم وجهلهم بالأمور ، وخيانتهم للمصلحين فيهم : « إلى حد أنهم كما

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

قاموا للإصلاح ازدادوا فساداً أو حاولوا إغلاق باب للأجانب فتحوا أبوابا أخرى».

ويبدو أن مولانا أبا الكلام كان يعاني مرارة شديدة من حال المسلمين وتفككهم وضعفهم وانصرافهم عن المصلحين بل وخيانتهم لهم، وهذه حال كثيرا ما تعترى الأمم حين تقوم من رقدتها الطويلة تتلمس طريق البعث والنهوض ويقودها المصلحون إلى هذا الطريق إذ تقوم فى وجوههم مخلفات من عصر النوم والضعف تتمثل فى عقليات جامدة ونفوس حاقدة وعملاء المتسلطين فى استمرار الأمة فى ضعفها ونومها ... والمصلحون الحقيقيون هم الذين يثبتون على الطريق ممكنين بشعلة الإصلاح غير عابئين بهذه المخلفات ولا يائسين مما يصيبهم من جحود وإعنات ... وهكذا كان مولانا أزاد ... لم ييأس ولم يلق الشعلة التى فى يده، ولكنه كان يتخذ من معرفته بالأوضاع العكسية التى تحيط به درعا يتقى به الفشل ويدفعه إلى السير فى طريقه بتأن وحذر.

وبهذه الروح كان ينظر إلى اقتراح السيد رشيد رضا الخاص بعقد مؤتمر إسلامى فبالرغم من أنه صرح بأن موضوع هذا المؤتمر كان موضع تفكيره المستمر من زمن طويل وكان شغله الشاغل الذى كثيراً ما طرد من جفنيه النوم حتى يفبشق الفجر، وهو يتقلب على فراشه غارقا فى التفكير فيه إلا أنه كان ينظر إلى العقبات التى تعترض طريق هذا المؤتمر، ويرى أن انعقاده فى مصر أو الهند وهما البلدان اللذان يمكن عقده فيهما يجعله تحت سيطرة الانجليز وهم أعدى أعداء الإسلام ولا يدعون المسلمين يعملون عملا نافعا لهم.

وليس معنى هذا عنده إهمال الفكرة وتركها يأسا من نتيجتها ولكنه يعرض هذا ليكون فى الحسبان عند بدء العمل ولهذا نجده يشير إلى أن الخطر على الباب وأن الواجب يقضى بترك الكلام ونشر المشروعات والبدء فى عمل فورى جدى يفيد المسلمين.

ونراه أخيرا يخطو خطوة واسعة فى سبيل تدعيم العلاقة بين مسلمى الهند وإخوانهم العرب الذين هم مهد الإسلام؛ فيكتب للسيد رشيد رضا عن عزمه على إصدار مجلة باسم «الاتحاد الإسلامى» لتوطيد الروابط بين المسلمين وإيقافهم على شئون إخوانهم فى كل مكان ويرجو من السيد رشيد مساعدته على إخراج هذا المشروع الحيوى بمده بالأخبار والمقالات..

ويظهر أن الظروف لم تساعده على تنفيذ هذا المشروع فى ذلك الوقت وإن كان من المعروف عن تاريخ الصحافة العربية فى الهند أن مولانا أزاد أخرج مجلة عربية باسم الجامعة سنة ١٩٢٣ وكانت تصدر من كلكتا واستمرت عدة سنين وكان لها دور فى الأوساط العلمية فى الهند والبلاد العربية وقامت بدور

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

رائع فى تاريخ الصحافة العربية والهندية لا ينكر فضله .

ولشدة حساسية مولانا أزاد نحو الخلافة والإبقاء عليها يعود فى آخر الخطاب إلى ما نشر عن السيد رشيد فى الهند فيؤكد له أنه وإن أساء فيه ظن مسلمى الهند إلا أنه لا يزال عند رأيه فيه من تأييده لحركة الخلافة ومن أنه لا يمكن أن يدعو لبتر جزء آخر من دولة الخلافة ويكون ألعوبة فى يد الأجانب الذين يريدون بها سوءا ... وهو فى هذا يبدو فى غاية اللباقة والكياسة مع السيد رشيد ... الذى يرى فيه مصلحا مخلصا لوجه الله داعيا إلى القرآن الحكيم ومحييا السنة النبوية .

أظن أن هاتين الرسالتين تعطيانا صورة كافية عن مولانا أزاد واهتمامه بالخلافة ومصيرها ولاشك أننا نفهم أن جهوده داخل الهند من أجلها كانت أكثر وأعظم ، وهذا هو الواقع ، فقد كانت الخلافة تشغل كل تفكيره باعتبارها مسألة دينية من جهة ، ولاتصالها بمصير المسلمين ومجدهم من ناحية أخرى . ولهذا رأيناه أثناء مرافعته أمام المحكمة التى كانت تحاكمه سنة ١٩٢٢ يثير موقف الحكومة الانجليزية العدائى من الخلافة واعتدائها على أراضيها ونقضها للعهود فيقول :

« وإنى لا أذكر هنا مظالم الحكومة حيال الخلافة الإسلامية لأنها أشهر من أن تذكر . ولكن الذى أريد التصريح به هو أنه لم يمض على يوم ولا ليلة فى خلال السنتين الماضيتين إلا وأعلنت تلكم المظالم على رءوس الأشهاد وصرخت بأعلى صوتى قائلا : « إن الدولة التى تدوس الخلافة الإسلامية تحت أقدامها ولا تندم على ما اقترفته فى الهند من الفظائع والمنكرات لاتستحق أن يخلص لها أحد من أبناء هذه البلاد ، لأنها بأعمالها قد أصبحت عدوا ألد للإسلام والمسلمين وسكان هذا القطر .

ولا تلوم الحكومة أحدا غير نفسها على سقوطها فى هذا المأزق الذى يصعب عليها الخروج منه لأنى قد نبهتها سنة ١٩١٨ من مستقبل فى كتاب منى إلى « الورد جيمسفورد » الوالى السابق ، فصلت لها فيه الأحكام الإسلامية التى تتعلق بالخلافة وجزيرة العرب وصارحتها بأن الدولة البريطانية إذ انقضت عهدها واستولت على الخلافة والبلاد الإسلامية فإنها توقع المسلمين فى حالة حرجة جدا ولا يبقى لهم إذ ذاك إلا أن يكونوا مع الإسلام أو مع بريطانيا ، ومعلوم أنهم يؤثرون الإسلام عليها ، وفى موضع آخر من مرافعته يندد فى شدة وصراحة بموقف الحكومة الانجليزية ورئيس وزرائها من الدولة العثمانية وإخوانه المسلمين فيها ويعدد المساوئ ، التى من أجلها قام هو وشعب الهند ضد انجلترا فيقول بعد أن عدد مساوئها فى الهند :

ثم إنهم وجدوها لا ترتدع عن دوس الخلافة الإسلامية ولا تسمع الصيحات المتوالية التى تعلو من أفواه المسلمين وغيرهم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وتسلم أزمير وتراقيا إلى اليونان ظلما وجورا وتسمح لهم بإراقة دماء المسلمين أنهارا في سهول الأناضول ، وقد رأوا جرأتها في سحق الحق غير قليلة وهمتها في لبس الصدق بالإفك غير كليلة ولسانها في تكذيب الحق غير عي ولا متلعثم ، مع أنه يوجد في ولاية أزمير ٧٠ ٪ من المسلمين يعلن رئيس وزرائها بدون أدنى لكنة أن الأكثرية للمسيحيين ، ولقد وضع اليونانيون السيف في رقاب المسلمين ؛ وذبحوهم ذبح الأنعام ، وهو يقلب الحقيقة فيتهم العثمانيين بالقتل وسفك الدماء ويشهر المظالم التركية المخترعة في العالم بلا مبالاة ويخفي بكل وقاحة تقرير لجنة التفتيش الأمريكية التي ندبتها حكومته بنفسه ، ويؤلب على الأحرار العثمانيين الدول الغربية كلها ويدعوها إلى محاربتهم واستئصالهم .

ثم يقول أيضا في موضع آخر من مرافعته :-

ثم إني منذ خرجت من الاعتقال الطويل ما برحت أنشر هذه المبادئ - مبادئ الثورة ضد الانجليز - بين الناس وأدعوهم إليها في مؤتمر الخلافة الذي انعقد في ٢٨ ، ٢٩ فبراير سنة ١٩٢١ بكلكتا نفسها والذي رأست جلساته حملت المسلمين على أن يعلنوا القرار الآتي :

إن أصرت الحكومة الانجليزية على غوايتها ، ولم تصغ لمطالبنا في مسألة الخلافة ، يضطر المسلمون بحكم دينهم أن يقطعوا كل أواصر الولاء التي تربطهم بها .

وفي نفس هذا المؤتمر أعلن أنه لا يحل للمسلمين أن ينسلكوا في الخدمة العسكرية لهذه الحكومة لأنها تحارب الخلافة والدولة الإسلامية .

وهكذا تشغل مسألة الخلافة بال مولانا أزاد ووقته وجهده بجوار مسألة بلاده وتحريرها والعدو واحد وهو الانجليز ويبدو مولانا أزاد بهذا رجلا مسلما لم يتنكر أبدا لواجبات المسلم تجاه إخوانه ، بل يحس إحساسهم ويشعر شعورهم أينما كانوا . ويرى أن مساعدة الغرب والانجليز بنوع خاص اليونان ضد دولة الخلافة إنما هو اعتداء على المسلمين في كل مكان وأن من الواجب عليهم أن ينفروا جميعا ضد الانجليز ويحاربوهم ما داموا يحالفون المسيحيين اليونان على المسلمين ، ويبدو من هذا شبح حرب صليبية أخرى .

إن مولانا أزاد يبدو في هذا مسلما بلغ القمة في إسلامه وفي شعوره الديني وفي إحساسه بواجبات المسلم والتزاماته نحو إخوانه حتى كأنهم جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

ودولة الخلافة هي في رأيه قلب العالم الإسلامي وكل أذى يمس هذا القلب يهدد المسلمين جميعا بالخطر . . ولهذا كرس كل جهوده لحماية هذا القلب والدفاع عنه . .

(للحديث بقية)

عبد المنعم النمر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نظرات فى التصوف والأدب :

الصّوفيّة وعلاقتها بالزّهد

للأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى

— ٢ —

الباحثين فى نشأة التصوف آراء متعددة ، ولكل وجهة خاصة يستدل عليها ، ويؤكد صحتها .

فمن قائل : إن التصوف إسلامى النشأة والمنبت ، وذهب كثيرون إلى أن التصوف وفد على البيئة الإسلامية من الأجناس الأخرى مع ما وفد من العادات والتقاليد بحكم المزج والاختلاط الذى أعقب الفتح الإسلامى ، ومن هؤلاء الباحثين جمهرة المستشرقين ، فبعضهم يرى أنه فارسى ومنهم من يرى أنه هندى ، ومنهم من يرى أنه يونانى ، أو مسيحى أو مزيج من هذا كله ، وقد تضاربت الآراء كثيراً فى الكشف عن أصل التصوف حتى قال : « ماسينيون » معبراً عن مدى تضارب الآراء فيه : أما دراسة مصادر التصوف فإن الأمر بيننا وبين استكمالها ما يزال بعيداً ، وقد حار علماء الإسلاميات الأول فى تعليل ذلك الخلاف الكبير فى العقيدة بين مذهب الوحدة (وهو المذهب الرئيسى فى التصوف الإسلامى فى أرقى أدواره ، وبين مذهب أهل السنة الصحيح ، فقد ذهبوا إلى أن التصوف مذهب دخيل فى الإسلام مستمد إما من رهبانية الشام ، وهذا رأى (ماركس Marx) ، وإما من إفلاطونية اليونان الجديدة ، وإما من زرادشتية الفرس ، وإما من فيدا الهنود ، وهذا رأى (جونس Jones) ، وقد بين نيكلوش :

أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام قول غير مقبول [1].

على أن الصوفية أنفسهم يأبون كل الإباء أن ينسب مذهبهم إلى غير الإسلام ، ولنأخذ فى إيراد هذه الآراء ووجهة نظر القائلين بها .

الأصل الفارسى : يذهب القائلون بأن التصوف فارسى الأصل إلى أنه انتقل إلى البيئة الإسلامية عن الفرس عن طريق الصلات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية القوية بين العرب والفرس ، ويرون أن مما يؤكد هذا أننا نجد أكثر شيوخ الصوفية فرسا إما بالنشأة والتربية ، وإما بالأصل والمولد

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة تصوف

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأصل الهندى : أما القائلون بأنه هندى الأصل فيستدلون على ما ذهبوا إليه بما بين الصوفية والمذاهب الهندية من تشابه قوى فى الآراء والأفكار والمعتقدات، كالقول بالتناسخ وهو عقيدة هندية قديمة ، والقول بوحدة الوجود والحلول والاتحاد والاتجاه إلى ماذهب إليه الهنود من أن السعادة هى الذكر الدائم لله ، والتأمل المتصل فيه ، لأنهما يوصلان من يأخذ بهما ، ويروض نفسه عليهما إلى اتحاده بالله وبالكون فإنهما ليسا إلا حقيقة واحدة، ويعد البيرونى زعيم هذه الدعوى لما له من اتصال بمذاهب الهند ودراسة لها بحكم اختلاطه بهم ، وإقامته بينهم ، ويسمى مذهب الهنود طريقة باتنجل فقال : « وإلى طريق باتنجل ذهبت الصوفية فى الاشتغال بالحق فقالوا : مادمت تشير فلست بموحد حتى يستولى الحق على إشارتك بإفنائها عنك ، فلا يبقى مشير ولا إشارة ، ويوجد فى كلامهم ما يدل على القول بالاتحاد كجواب أحدهم عن الحق « وكيف لا أتحقق من هو أنا بالآنية إن عدت فبالعودة فرقت ، وإن أهملت فبالإهمال خففت ، وبالاتحاد ألفت » .

وكقول أبى بكر الشبلى : « اخلع الكل تصل إلينا بالكلية فتكون ولا نكون ، إخبارك عنا وفعلك فعلنا » .

وكجواب أبى يزيد البسطامى ، وقد سئل بم نلت ما نلت: فقال : « إنى انسلخت من نفسى كما تنسلخ الحية من جلدها، ثم نظرت إلى ذاتى فإذا أنا هو » (١) .

وأيد ذلك بعض المستشرقين بما رأوه من انتقال بعض العادات والتقاليد عن الهند كالمسابح فإنها بوذية وحلقات الذكر .

الأصل النصرانى :

ويذهب كثير من الباحثين إلى أن التصوف الإسلامى وفد إلى البيئة الإسلامية عن النصرانية ، ويؤيدون ما ذهبوا إليه بما كان موجودا بين العرب فى الجاهلية وبين النصرانية وأن كثيراً من العرب كانوا نصارى ؟ بل إن منهم من ترهب وتنسك كحنظلة الطائى ، فقد بنى له ديراً يتعبد فيه يسمى دير حنظلة ، وقد وجد غير ذلك من كان يأوى إلى القفار ويأنس بالوحوش ، كما حدثوا عن قس .

وأن لبس الصوف كان لباس المسيح هذا إلى أوجه الشبه القوية بين حياة الزهاد والعباد والصوفية من المسلمين وبين حياة الرهبان والقسس والنصارى ، من ناحية العبادة والطريقة والرياضة ، أما ما يتعلق بالصوفية من جهة كونها مذهبا إذ تعبر عن

---

(١) قوت القلوب ج ٣ ص ٨٠ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

منازع أصحابها ونظرتهم إلى الحياة ، وفلسفتهم فيها ، فإنها ترجع إلى ما روى من قصص عن المسيح عليه السلام يتمشى مع مذاهبهم .

فقد روى أن المسيح مر بقوم من العباد ، وقد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية . فقال : ما أنتم ؟ فقالوا : نحن عباد ، قال : لأى شيء تعبدتم ؟ قالوا خوفنا الله من النار فخفنا منها .

فقال : حق على الله أن يؤمنكم ما خفتم .

ثم جاوزهم ومر بآخرين أشد عبادة منهم .

فقال : لأى شيء تعبدتم ؟

قالوا : شوقنا الله إلى الجنان ، وما أعد فيها لأوليائه ، فنحن نرجو ذلك .

فقال : حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم .

ثم جاوزهم ومر بآخرين يتعبدون .

فقال : ما أنتم ؟

فقالوا : نحن المحبون لله ، لم نعبده خوفا من ناره ، ولا شوقا إلى جنته ، ولكن حباً له ، وتعظيما لجلاله .

فقال : أنتم أولياء الله حقا ، معكم أمرت أن أقيم ، وأقام بين أظهرهم .[1]

فهذه القصة يمكن أن تعتبر أساسا لنظرية الحب الإلهى التى استولت على نفوس المتصوفة ، وكانت محورا أساسيا لتعاليمهم ونظمهم ، فإن فريقا منهم نزع إلى الخوف من الله ، وقبيلا تطلع إلى الشوق إلى جنته ، وطائفة لم ترض بذات الله بديلا .

الأصل اليونانى :

ويرى فريق من الباحثين أن الفلسفة اليونانية كانت أساسا قويا من أسس التصوف الإسلامى ، ويستدلون على هذا بشيوع الفلسفة اليونانية فى العصر العباسى لدى العرب ، وأنهم حينما أخذوا فى نقل التراث اليونانى إلى العربية لم يكن ذلك قاصرا على فلسفة أرسطو فقط ؟ بل نقلوا أيضا عن أفلاطون وأفلوطين ، وتعاليم هؤلاء جميعا كانت معروفة لدى المسلمين - فكما تأثر الكندى والفارابى وابن سينا وغيرهم من الفلاسفة بأرسطو وآرائه ، كذلك تأثر الصوفية بأفلوطين ومدرسته فى الفلسفة الإشراقية التى تقوم على الذوق والوجد وتلجأ إلى كثير من الرياضات والمجاهدات كما هو الحال عند الصوفية ، بل إن كلمة « اعرف نفسك بنفسك » التى وجدت على بعض جدران المعابد اليونانية ، كانت ذات أثر فعال فى تعاليم الصوفية ، فإنهم ضموها إلى الأثر الوارد عن النبى صلوات الله

(١) الحياة الروحية فى الإسلام ص ١٥ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وسلامه عليه « من عرف نفسه فقد عرف ربه » وبنوا عليهما كثيرا من أسس أحوالهم ومواجيدهم .

ويبدو أثر الفلسفة الإشراقية واضحا عند المتأخرين من الصوفية ، أمثال ابن عربي والسهروردي في كتابيه : هياكل النور ، وحكمة الإشراق التي يجعل فيهما من الله نوراً للأنوار فياضاً بالأنوار القاهرة ، وهي النفوس والعقول ، وبالجواهر الغاسقة ، وهي الأجسام (١) .

الأصل الإسلامي :

هذه هي الآراء القائلة بأن التصوف غريب على البيئة الإسلامية ، وأنه شد إليها بحكم الاختلاط والامتزاج بين الأجناس والفلسفات والآراء .

ونحن نذهب مع القائلين بأن هذا تجن على الحقيقة ، وظلم للواقع ، وإنكار للمشاهد المحسوس .

ونرى أن التصوف نزعة إسلامية النشأة والمولد ، وجدت أصولها في القرآن والسنة وحياة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، ومسلك الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد كان النبي صلوات الله عليه كثيراً ما يخلو إلى نفسه ، وينأى بها عن الناس ، فما ذهابه إلى حراء ، وإقامته فيه الليالي ذوات العدد ، وما اعتكافه إلا ضرب من الصوفية ، وما تعبده في حراء قبل أن تأتيه الرسالة إلا تمهيد وتصفية للنفس الكريمة ، حتى تستشف وحي الله .

والواقع أن حياة الرسول كانت نبعاً غزيراً استقى منه الصوفية تعاليمهم ، وليس هذا فحسب ، بل وجدوا في كثير من آيات القرآن الكريم ما يحتجون به لمذهبهم هذا في الحياة ، وكذلك الأحاديث سواء ما كان منها قدسيا وما كان نبوياً .

أما الآيات التي يستندون عليها فمنها :

١ - « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا » .

٢ - « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

٣ - « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » .

٤ - « يأيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » .

٥ - « وتوكل على الحي الذي لا يموت » .

٦ - « يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا » .

٧ - « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » .

---

(١) الحياة الروحية في الإسلام ص ٨٥ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى هذه الآيات أسس بنى عليها الصوفية ما ذهبوا إليه من أحوال ومقامات ، ويؤكد ذلك أننا نراهم يكثرون من الحديث عن الصبر والتوكل والتوبة والتأمل والتفكر ، ومداومة الذكر ، ولهم فيها أبواب طوال عنوا بها كتبهم ، وملأوا صحائفهم ومما استدلوا به على مذهبهم فى وحدة الوجود ووحدة الشهود والتجلى قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى » ، وكذلك قوله سبحانه : « فأينما تولوا فثم وجه الله » .

أما الأحاديث التى تشهد لهم ، فقوله صلوات الله عليه فيما يرويه عن ربه : « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى » .

والصوفية يتخذون من هذا الحديث دليلا على ما ذهبوا إليه من نظرية الحب الإلهى .

ويستدلون كذلك بما رواه الرسول عن ربه أيضا : « ما تقرب إلى عبدى بأفضل مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت يده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وعينه التى يبصر بها ، وأذنه التى يسمع بها » .

وقد وجد أصحاب الأذواق والمواجيد تفسيراً لمذهبهم فى الفناء والغيبوبة ، فناء العبد فى ربه والمحب فى محبوبه .

ومن الأحاديث النبوية التى يستندون إليها : « أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « وإن من عباد الله أناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله عز وجل . قال رجل : فمن هم يارسول الله ؟ وما أعمالهم ؟ لعلنا نحبهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوم يتحابون بروح الله عز وجل من غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، والله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، قالوا : ثم قرأ : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فى هذه النصوص وحياة الرسول عليه السلام الأصول التى يقولون إنهم استمدوا منها مذهبهم وساروا على نهجها فى حياتهم ، ووجد فيها الزهاد أصولا لزهدهم والصوفية غذاء لأذواقهم ومواجيدهم .

والصوفية يردون كل قول غير هذا ، ولا يكادون يطيقون أن يسمعوا أنهم اعتمدوا على مذهب أو رأى آخر فى نزعتهم من أى لون كان

ولأمر ما تجد كبار المؤلفين فى الصوفية يبدأون أبوابهم بأحاديث نبوية فى هذا الباب كما فعل القشيرى فى رسالته حينما شرع يتكلم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عن الأبواب المختلفة من تأمل وصبر وتوبة ، وخوف وغير ذلك .

وقد لاحظت وأنا أطالع تراجم الصوفية فى حلية الأولياء لأبى نعيم، وطبقات الصوفية لعبد الرحمن السلمى - أن كلا منهما يحرص دائما على أن يثبت أن المترجم روى الحديث وطلبه ، وما ذلك إلا لإشارتهم إلى قوة الصلة التى تربطهم بالسنة . والذى تطمئن إليه النفس ويسلم به العقل ، ويقبله الواقع ، ويرضى عنه الباحث أن الصوفية نزعة إسلامية نشأت فى أحضان الإسلام ، وتربت فى بيئته ، واستمدت من منبعه الصافى وجودها ، ولم يكن لأى عامل آخر أثر فى نشأتها إلا أنها وهى تتقلب فى مدارج الزمن ، وتنتقل من جيل إلى جيل ، قد لاقت فى مسيرها كثيراً من النزعات والثقافات المختلفة والنحل المتعددة ، وتسرب إليها كثير من رواسب الديانات القديمة فى نفوس أربابها بحكم التأثر بالبيئة والانقياد للوراثة ، فلما تلاقى بها هذا المزيج فى حياتها أخذت منه وتركت بلا شك ولا ينازع فى هذا أحد . وخلاصة القول فى هذا : أن الإسلام منبعها الأصلى الذى أمد مجراها بالفيض الأول ، وشق لها طريقها فى عجيج الحياة وصخبها ، ولكنها لم تعدم بعض الروافد التى كانت تلتقى فيها بين آن وآخر بعض رواسبها فتقبلها تارة ، وترفضها أخرى ، وهذه سنة الحياة ، وأكبر دليل على ذلك تطور التعاليم الصوفية على مر العصور ، وسيبدو هذا التطور واضحا جليا فى الفصل الآتى حينما نتحدث عن المدارج التى مرت بها فى سيرها المتتابع .

مناقشة الآراء السابقة :

ولابد لنا وقد ذهبنا إلى هذا الرأى أن نرسل كلمة نشير فيها إلى رد الآراء السابقة قبل أن نمضى إلى فصل آخر فنقول :

إن ما ذهب إليه أصحاب الآراء السابقة لا ينهض أن يكون دليلا على رأيهم؛ لأن كثيرا من الأحوال والتيارات والمؤثرات قد تتشابه فى أكثر من بيئة فتوجد حالة فكرية متشابهة، والتشابه فى الآراء ليس دليلا على أخذ أحدهما عن الآخر ، وفى هذا رد على القائلين بالأصل الهندى واليونانى .

أما القائلون بالأصل النصرانى فإن ما أثبتناه منذ قليل من حياة الرسول وأحاديثه فيه الكفاية فى رد هذا الرأى ، وأما القائلون بالأصل الفارسى، فليس ما ذهبوا إليه بشىء؛ لأن العرب والفرس قد اتصلوا من قديم ولم يظهر لذلك أثر ما .

محمد إبراهيم الجيوشى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الخدمات الاجتماعية عن طريق الدين

للأستاذ أحمد الشرباصي

— ٢ —

ومن الخدمات الاجتماعية التي يكسبها المجتمع عن طريق الدين نظام « الأوقاف » الذي عرفه الإسلام منذ أقدم العصور ، واستطاع هذا النظام أن يوفر للأمة الكثير من الخدمات والمعونات للضعفاء ، والفقراء ، والمعوزين ، وأصحاب الضوائق المالية المختلفة ، وفي موطن آخر تعرضت لذكر فنون الأوقاف التي تؤدي إلى ألوان من الخدمات الاجتماعية ، والتي عنى شكيب بالتنويه بها والحديث عنها أكثر من مرة ، ومن هذه الألوان التي يحدثنا عنها تاريخنا القديم أو تاريخنا القريب أو المعاصر ما يلي :

فمنها مدارس ومستشفيات ودور كتب ، ودور لعلاج المجانين ، ودور لعلاج المجاذيم (جمع مجذوم وهو المصاب بمرض الجذام) ، ودور ضيافة ، ومنها ما يوزع الخبز يوميا ، ومنها ما يوزع الحساء (المرق) ، ومنها مؤسسات لأشياء لا تخطر على بال الأوربيين

ومن أمثلة ذلك أن في دمشق وقفا اسمه وقف « الزيادي » ، فمن كان في يده من الأطفال أو الخدم طبق صيني وانكسر ذهب إلى ذلك المكان ، ووضع قطع طبقه المكسور ، وأخذ بدلا عنها طبقا سليما .

وفي مدينة « فاس » بلاد المغرب وقف للثياب ، فمن كان ماراً في شارع وتمزق ثوبه ، أو أصابه شيء لوثه ، بحيث أصبح متعذراً عليه لبسه ، له أن يذهب إلى ذلك الوقف ليأخذ ثوبا جديداً .

وفي « تونس » وقف من كان يريد دخول الحمام ، وليس في يده ما يدفع منه أجرة الاستحمام يذهب إلى ذلك الوقف ، فيأخذ صرة صغيرة فيها الأجرة المذكورة .

وفي « مراكش » وقف كبير للنساء اللواتي يقع خلاف بينهن ، وبين أزواجهن ، فإنهن يذهبن إلى هذا الوقف ، ويقمن فيه ما شئن ، ويعشن دون منة من أحد ، إلى أن ينتهي الخلاف بين المرأة وزوجها ، إما بالوفاق أو بالفراق .

وفي « فاس » وقف اسمه « مؤنس العليل » يؤخذ منه إعانة للمؤذنين أصحاب الأصوات الشجية ، حتى يبكروا في الصعود إلى المئذنة ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويترنموا بالتسابيح الإلهية التي إذا سمعها العليل الذي قضى ليله ساهراً يتململ على فراش الألم والأرق استأنست بذلك نفسه ، وخفت وحشته .

وهناك في بلاد الإسلام أوقاف لتزويج البنات الفقيرات ، وأوقاف لإطعام الحيوانات وفي مدخل « دمشق » مرجة كبيرة موقوفة على الخيل المسنة ترعى فيها ، وهناك أوقاف للقعدين ، وأوقاف لرعاية المكفوفين ، وأوقاف لتمهيد الطرق ولرصف الشوارع ، وأوقاف لشراء مكافآت للسابقين من صبية الكتاتيب

وإذا كان قسم من هذه الأوقاف قد محيت رسومه بطول الأيام فإن منها ما لا يزال ريعه داراً ، والفقراء يستفيدون منه ! .

* * *

ومن الخدمات الاجتماعية التي نكسبها عن طريق الدين أن الدين نظم لنا فرصاً ومناسبات متقاربة للتلاقي والاجتماع عن طريق صلاة الجماعة المنتظمة كل يوم خمس مرات ، وعن طريق صلاة الجمعة كل أسبوع ، وعن طريق صلاة العيد مرتين في كل عام ، وعن طريق مؤتمر الحج الأكبر ، وفي هذه الاجتماعات تتوافر عوامل التعارف والتفاهم والتعاون والتآلف ، ويسهل بث التوجيهات الاجتماعية الرشيدة .

فخطبة الجمعة مثلا ما هي إلا مجلة أسبوعية دينية مسموعة ، يعالج فيها الخطيب الرشيد البصير أمور مجتمعه وشئون بيئته ، ويشخص ما هناك من أمراض أو علل أو مشكلات ، ثم يصف العلاج لهذه المشكلات من هدى الله تبارك وتعالى الذي يقود إلى الحق وإلى صراط مستقيم . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

ونستطيع أن نقول مثل هذا أو قريبا منه عن بقية الاجتماعات . وناهيك بمؤتمر الحج الذي يتلاقى فيه الناس من كل حدب وصوب ، يتعارفون ويتآلفون ويتشاورون ، ويتفقون في النهاية على ما يجب أن يكون ، فوق ما في الحج نفسه من فوائد الرحلة ورواج التجارة وتبادل المنافع .

والصلاة نفسها فيها خدمات اجتماعية متعددة عند أدائها على الوجه السليم القويم الذي أراده الدين ، لأنها تؤدي إلى رفع المستوى الصحي والنفسي والاجتماعي للفرد ، ومتى صلح الفرد وتعدد الصلاح بتعدد الأفراد كان معنى هذا صلاح المجتمع كله .

فالصلاة توجب على مقيمها أن يكون طاهر البدن ، طاهر الثوب ، طاهر المكان الذي يؤدي فيه الصلاة ، وتوجب على الإنسان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أن يتوضأ ، والوضوء هو غسل اليدين والوجه والذراعين والشعر والأذنين والرقبة والرجلين ، وهو لهذا تجديد مستمر لنظافة الأطراف والأعضاء التى تتعرض فى العادة للغبار والتراب وطفيليات الجو الأخرى ، ولا شك أن رفع المستوى الصحى للأفراد يؤدى إلى قلة الأمراض ، وإلى وفرة النشاط ، وإلى زيادة الإنتاج ، وفى هـذا ما فيه من خدمات للمجتمع .

وفى الصلاة تعويد على النظام ؛ لأن الصلاة تؤدى فى مواعيد ثابتة ومواقيت محددة ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا » . وتعود الأفراد للنظام يرفعهم اجتماعيا ويزيدهم رقياً .

وفى الصلاة مناجاة ودعاء واستغراق ووحى فى العبادة ، وهذا الاستغراق ينقى النفس ويصفيها ، ويعلو بها ويزكيها ، وحين يعود المصلى الصادق الخاشع إلى مجتمعه ، يعود إليه نقياً صافياً طهوراً ، فيصدر عنه الخير ويتوالى منه العمل الصالح .

* * *

والدين الإسلامى قد شرع جملة نظم تؤدى إلى ألوان من الخدمات الاجتماعية ، ومن هذه النظم نظام « الميراث » الذى يفتت الثروة من حين إلى حين ، ويقرب بين الأفراد ، ويحفظ كيان الأسرة ، ويوثق الروابط بين الأقرباء .

ونظام « النفقة » التى تجب بين الأصول والفروع ، أو بين القريب والغريب ، ونظام « الحضانة » الذى يصون الطفولة من التشرد والضياع ، ونظام « الوصاية على القاصر » ، لكى يتصرف الوصى تصرفا رشيداً حكيما يودى إلى الخير ونظام الحجر على السفيه سيء التصرف حتى يعود إليه رشده وصوابه ، وهناك نظام « النفقة » الذى يحفظ حق الجار فى الشراء قبل حق الغريب والدخيل ، وهناك نظام الضيافة الذى شرعه الإسلام للغريب لمدة ثلاثة أيام ، وهناك نظام « الكفالة لليتيم والرعاية لماله » ، وهناك نظام « كفالة اللقيط » والقيام على تنشئته وتربيته ، وهناك « نظام الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، وهناك نظام « الحسبة » والتطوع بإزالة ما يسوء .

وكل نظام من هذه النظم يحقق خدمات اجتماعية جليلة لو أردنا شرحها لاحتجنا إلى أن نخصص لكل نظام بحثاً نستعرض فيه قواعده وفوائده .

* * *

وهناك قيم اجتماعية نحرص عليها ونتمنى توطيدها وتوكيدها ، والدين يعاون على

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تثبيت هذه القيم الفاضلة ، فهناك مثلا التكافل الاجتماعى ، والإسلام يقول : « إنما المؤمنون إخوة » ويقول الرسول: « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا » : وهناك العدالة الاجتماعية والروح الاشتراكية ، والرسول يقول : « الناس شركاء فى ثلاثة: الماء والكلأ والنار ».

وهناك العدل المؤدى إلى الأمن والسلام والقرآن يقول : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » ويقول: « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وهناك الدعوة إلى عدم البغى فى أخذ الثأر ، والقرآن يقول : « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ، فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا » .

* * *

ومن الخدمات الإجتماعية التى تكسبها عن طريق الدين أن الدين يعلمنا آداب السلوك الاجتماعى ، فهو يؤكد فى عقولنا وقلوبنا أن هذا الإنسان العاقل البصير الذى جعله ربه خليفة فى أرضه ، لم يخلق لنفسه وحدها ، أو لذاته فقط ، بل خلق ليكون لبنة فى بناء أمته ، وفردا فى عقد مجتمعه ، ومن واجب الفرد أن يندمج فى الجماعة ويتفاعل معها ، وأن يحسن معاملته لها ، حتى يكون فى عونها وتكون فى عونه .

والإسلام الحنيف يعلم المسلم - فى قرآنه الكريم وسنة نبيه العظيم صلوات الله وسلامه عليه - أن يكون فى سلوكه الفردى والاجتماعى مثلا من أمثلة الخير والبر ، والحرص على الإحسان بمختلف ألوانه ، والبعد عن السوء والفساد قدر طاقته ، فالله يقول : « وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » والحديث يقول : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وأساس الأدب الإسلامى فى السلوك الاجتماعى الفرد هو أن يكون المسلم - فوق ابتعاده عن الشر ، ونأيه عن الأذى عنصرا من عناصر المعونة والنفع للناس، والتجمل معهم بمكارم الأخلاق ، والتحلى فى معاملتهم برقيق الخصال ، فإذا كان الحديث يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » فإنه أيضا يقول :« خير الناس أنفعهم للناس » ويقول : « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

* * *

وكما تكون المعاملة الاجتماعية الجيدة فى أمور كبيرة جليلة تكون فى أمور دقيقة يسيرة، فقد تكون فى النظرة واللفتة والكلمة والتحية وهيئة الحركة ، والإسلام يتتبع هذه الدقائق بالنص عليها والتوجيه إليها ، حتى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

يكمل الفرد فى سلوكه الاجتماعى مع غيره ، فهو مثلا يحرض المسلم على أن يحسن القول ويبذل تحية السلام لمن يلقاه حتى يشيع التعارف والتآلف ، يقول الحديث : « إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام » ...

ويحرضه على مصافحة معارفه حتى يتأكد الود بينه وبينهم ، وتزول عنهم ما قد يكون غائما فى أفق صلاتهم وروابطهم ، ولذلك يقول الحديث : « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا » ، وقال أبو ذر رضى الله عنه : ما لقيت النبى صلى الله عليه وسلم إلا صافحنى ...

ومن آداب هذا السلوك الاجتماعى أن يتذكر الفرد على الدوام أنه ليس وحده فى بيئته ومجاله ، بل هناك من قد يكون أحق بسبقه فى ركوب أو نزول أو مسير أو تناول شىء من الأشياء ، أو ما قارب ذلك من أوضاع .

وهذا هو القرآن يعلم أهله أن يوسعوا فى المجلس أو يخلو مكاناً فيها لمن يستحق التوسعة أو النهوض ، فيقول : « يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس (أى توسعوا فيها) فافسحوا يفسح الله لكم ، وإذا قيل انشزوا (أى انهضوا) فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير » .

والحديث النبوى يعلمنا كيف نكرم فى هذه المجالات أمثال الشيخ الطاعن فى السن ، والمرأة العجوز أو الحامل ، والضعيف مهما يكن ، فيقول : « ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه » ، أى عند شيخوخته وفى رواية طبقات الشعرانى : « من أكرم ذا شيبة - يعنى مسلما - سخر الله له من يكرمه عند شيبته » ... ويقول : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر » ، ويعمم التحريض على الرحمة والرفق بالضعفاء وإيثار من يستحق التقديم فيقول : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

ويرشد الإسلام أهله إلى أن الإحسان فى المعاملة الاجتماعية مفتح الأبواب كثير النوافذ ، وقد لا يكلف هذا الإحسان صاحبه جهداً كبيراً ، فيقول الحديث : « تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر لك صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة » ...

ومن آداب السلوك الاجتماعى فى الإسلام

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أن ينصرف المرء إلى ما هو من شأنه ، دون أن يتطفل على شئون سواه ، وأن يتجمل بهذا الأدب حتى فى السير والنظر والاستماع وتعلق الفؤاد ، وأن يتحلى مع ذلك بالتواضع فى المشية ، ويبعد عن الاختيال فى الحركة ، يقول الله تعالى : « ولا تقف (أى لا تتبع) ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الأرض مرحا ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » .

وينهى القرآن أبناءه ، على لسان لقمان فى وصيته لابنه عن التكبر على الخلق والتباهى على الناس ، حتى يميل المتكبر بخده ، زهواً أو اختيالا وعن مشية التجبر والتفاخر ، وعن العجلة الشائنة فى المسير ، وعن علو الصوت فى الخطاب علوا منكراً ، فيقول : « ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

ويعلم الإسلام أبناءه أن يتحرزوا فى خطابهم وحوارهم وردودهم عما لا يليق من الألفاظ ، وعما يشين من الكلمات والتعابير ، فالحديث يقول : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىء » ، أى سفيه اللسان .

كما أن من آداب السلوك الاجتماعى فى الإسلام أن يعاون المرء غيره على الاستقامة فى السلوك والتحلى بالمكارم ، وذلك عن طريق النصح الرقيق والتوجيه الرفيق ، والنبى صلوات الله وسلامه عليه يقول : « الدين النصيحة » ، ويقول : « المؤمن مرآة المؤمن » ، ويقول : « إن أحدكم مرآة أخيه ، فإن رأى به أذى فليمطه عنه » .

ومن التعاون على هذه الاستقامة أن يحسن المرء الإغضاء عما يقع فيه صاحبه من هفوة أو خطأ ، فالحديث يقول : « من أقال مسلما عثرته أقاله الله يوم القيامة » ، ولا يكتفى المسلم فى هذا الباب بالإغضاء عن الزلة ، أو العفو عن الخطأ ، بل هو لا يتيح فرصة للمفسدين كى ينالوا الناس بالتجريح أو الافتراء ، فما أوسع باب الشر فى هذا المجال ، والحديث يقول : « من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار » .

فليكن الإنسان فى هذه الحياة - بحسن معاملته للناس وجميل سلوكه معهم - وردة تنفح غيرها بالعذا الطيب والعبير اللطيف ، فإذا رآها الناس شغفوا بها وحرصوا عليها ، وإن غابت عنهم تطلبوها وسعوا إليها ؛ « وإن الله لمع المحسنين » .

أحمد الشرباصى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

— ٨ —

نظرية المساواة فى القوانين الوضعية :

فى المقالين السابقين تحدثت عن المساواة فى الشريعة الإسلامية الغراء ، وأنها بلغت مداها فى عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وفى عهد خلفائه الراشدين المهديين من بعده ، ثم بقيت محافظا عليها فى عصور الإسلام الذهبية الأولى ، والآن سأتكلم عن نظرية المساواة فى القوانين الوضعية .

لقد كانت هذه القوانين حتى آخر القرن الثامن عشر تميز بين الأفراد . ولم تكن تعترف بالمساواة بين الحاكمين والمحكومين ، والأشراف وغير الأشراف ، ورجال الدين وغيرهم ، فكانت تميز بينهم فى المحاكمة ، وفى توقيع العقوبة ، وفى تنفيذها ، وكانت المحاكم تتعدد تبعا لتعدد الطوائف ، فللأشراف محاكم خاصة ، وقضاة من طبقة خاصة ، ولرجال الدين محاكم خاصة ، وللجمهور محاكم خاصة ، وكانت الجريمة الواحدة يعاقب عليها أمام هذه المحاكم بعقوبات مختلفة .

وكان لشخصية الجانى اعتبارها ، فالجريمة التى يرتكبها الشريف يعفى منها أو يعاقب عليها بأتفه العقوبات ، وإذا أتاها الرجل الغفل الشريف عوقب بأقسى العقوبات ، وكانت العقوبة الواحدة تنفذ على الشريف بطريقة تتفق وشرفه ، بينما تنفذ على الرجل الوضيع بطريقة تتفق وضعته ، وكانت بعض الأعمال إذا أتاها الأشراف ورجال الدين يعفون منها ، وإذا فعلها عامة الناس يحاسبون عليها أشد العذاب ، وقد أفصح عن بعض هذه الميزات نبينا صلوات الله وسلامه عليه لما أرادوا الشفاعة فى حد من حدود الله حيث قال : « إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » رواه البخارى ومسلم .

وما السرقة إلا مثل من الأمثال دعا إلى ذكرها بخاصة محاولتهم الشفاعة فى حد السرقة كان هذا حال القانون الوضعى إلى آخر القرن الثامن عشر حتى جاءت الثورة الفرنسية فجعلت المساواة أساسا من الأسس الأولية فى القانون ، وأصبحت القاعدة أن تسرى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نصوص هذه القوانين على الجميع ، ولكن مع هذا لم يطبق مبدأ المساواة تطبيقا تاما حتى وقتنا هذا ؛ إذ لم يكن من السهل التخلص من التقاليد القديمة دفعة واحدة ، فبقيت رواسب من التمييز وعدم المساواة اعتبرت استثناءات من مبدأ المساواة التامة ، وصار بعض الكتاب يتحلون لها المعاذير ، أو يبررونها بحيل قانونية ، بينما راح البعض ينتقدها ويطالب بإلغائها ، وكانت الغلبة لهذا الفريق ؛ إذ اتجهت إلى هذا الرأى بعض التشريعات الحديثة التى وضعت فى أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وضيقت من مدى الاستثناءات أو حاولت أن تقضى عليها ، واتجاه أغلب المفكرين اليوم إلى المساواة التامة وهم يعملون جاهدين لتحقيقها ولا ندرى ماذا سيكون ؟ أيتم لهم ما يريدون أم لا ؟ وإنه لأمل نرجو أن يتحقق لخير الإنسانية .

ومع نزوع القوانين الحديثة إلى المساواة ، فإن التطبيق العملى يعوزه المساواة ولا تزال بعض الدول المتحضرة تؤمن بالفوارق بين البشر ، فلا يزال الرجل الأبيض يجد لنفسه ميزة على الرجل الأسود ؛ وليس أدل على هذا مما نراه فى أمريكا ، زعيمة العالم المتحضر من التفرقة بين الأمريكى الأبيض ، والأمريكى الأسود ، ولا يزال أبناء أوربا وأمريكا يرون أن لهم فضلا على أبناء إفريقيا وآسيا ، ولا يزال المستعمرون يعاملون أهالى المستعمرات وسكانها الأصليين معاملة عارية من الإنسانية ورعاية حقوق الإنسان مما يجعلنا نؤكد أن قوانين المساواة عندهم لا تعدو أن تكون حبرا على ورق .

وإنا لنلمس عدم المساواة فى القوانين الوضعية فى الأمثلة الآتية :

( ) عدم المساواة بين رؤساء الدول والشعوب سواء أكان هذا الرئيس ملكا أو رئيس جمهورية فبينما يخضع الأفراد للقانون لا يخضع له رئيس الدولة بحجة أنه مصدر القانون وأنه السلطة العليا . ولا تزال بعض الدساتير تعتبر ذات الملك مقدسة كالدستور الدانمركى ، والدستور الأسبانى قبل الجمهورية أما الدستور الانجليزى فيجعل ذات الملك مصونة لا تمس ويفترض أن الملك لا يخطئ ، وفى بلجيكا ذات الملك مصونة لا تمس وكذلك كان الحال فى إيطاليا ورومانيا قبل إلغاء الملكية ، وكذلك كان الحال فى مصر إبان النظام الملكى الفاسد أما النظام الجمهورى فكان الأصل فيه أن رئيس الجمهورية غير مسئول ، وكانت شعوب العالم تعترف بهذا الوضع لرؤساء الدول الجمهورية حتى القرن التاسع عشر ثم بدأت تخرج عليه تحقيقا لمبدأ المساواة ، فمنها ما يجعله مسؤلا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى حالة الخيانة العظمى كالدستور الفرنسى ومنها ما جعله مسؤلا جنائيا فى حالة الخيانة العظمى والاعتداء على الدستور والجرائم العادية كالدستور البولندى ، وهكذا نرى أن القوانين الوضعية تأخذ فى مبدأ مسئولية رؤساء الدول بنظريات ثلاث : فالنظرية الأولى لا تجعل رئيس الدولة مسؤلا عن أية جريمة ارتكبها والنظرية الثانية تجعله مسؤلا عن بعض الجرائم دون البعض الآخر ، والنظرية الثالثة تجعله مسئولا عن كل الجرائم التى يرتكبها (١) .

ومع تطور القوانين الوضعية تطورا عظيما فلا تزال تقصر عن الشريعة الإسلامية فى باب المساواة والتطبيق ، وليس من شك فى أن الشريعة الإسلامية حينما أنت بالمساواة التامة بين الحكام والمحكومين ، والرؤساء والمرءوسين فقد أغلقت باب شر مستطير ربما يدخل منه على المجتمع مفاسد ومظالم إذا ما باليت الشعوب بحكام ظلمة لا يراعون الحقوق ، ولا هم لهم إلا إرضاء نزواتهم وإشباع شهواتهم ، والخضوع لأهوائهم ، والطمع فيما فى أيدى الناس .

(ب) تمييز الأغنياء على الفقراء :

تميز القوانين الوضعية الأغنياء على الفقراء فى كثير من الحالات ، ومن الأمثلة على ذلك فى القانون المصرى ، أن قانون تحقيق الجنايات يوجب على القاضى أن يحكم بالحبس فى كثير من الجرائم على أن يقدر للمحكوم عليه كفالة إذا دفعها أجل تنفيذ الحكم عليه حتى يفصل فى الاستئناف ، وإن لم يدفعها حبس دون انتظار لنتيجة الاستئناف (المادة ١٨٠ من قانون تحقيق الجنايات المصرى) .

ويجيز قانون تحقيق الجنايات المصرى للمتهم المحبوس أن يعترض على حبسه فينظر اعتراضه أمام القاضى ، وللقاضى أن يفرج عنه بضمان مالى (المواد من ١٠٤ إلى ١١٠ من قانون تحقيق الجنايات المصرى) .

وفى تقرير مبدأ الضمان المالى خروج على مبدأ المساواة لأن الغنى هو الذى يستطيع دائما أن يدفع الضمان المالى فيخرج من حبسه أما الفقير فهو فى أغلب الأحيان عاجز عن دفع الضمان فيظل رهين محبسه ، وقد تكون له أولاد يرعاهم يضيعون بحبسه ، وقد تقضى المحكمة ببراءته مما نسب إليه ، فتكون النتيجة أنه حبس لا لأنه أجرم بل لأنه عجز عن دفع الكفالة أو بتعبير آخر لأنه فقير .

(ج) تمييز الظاهرين من أفراد الجماعة :

تميز القوانين الوضعية الظاهرين من أفراد الجماعة على غيرهم ومن الأمثلة على ذلك

---

(١) القانون الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى ، جـ ١ ص ٣١١ - ٣١٢ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى القانون المصرى أن لوكيل النيابة أن يرفع الدعوى العمومية على المتهم فى جنحة دون استئذان جهة ما ، ولكن إذا كان المتهم موظفاً أو محامياً أو طبيباً ، أو عضواً فى البرلمان ، أو شخصية ظاهرة فإن وكيل النيابة لا يستطيع رفع الدعوى العمومية إلا بعد استئذان جهات معينة ويجوز لوكيل النيابة أن يحفظ القضية اكتفاء بجزاء إدارى يوقع على الموظف أو الطبيب أو المحامى وبذلك ينجو المتهم من العقوبة الجنائية ، ومثل هذا الحفظ غير ممكن بالنسبة لأفراد الشعب العاديين .

ويجيز القانون المصرى لمن وقع عليه ضرر من جريمة أن يطالب بتعويض ما أصابه من الضرر ، والمحاكم حينما تقدر هذا الضرر تراعى مركز الشخص وماله وما أصابه من ضرر وما فاته من نفع ، فلو أن مدير شركة وعاملا فى نفس الشركة أصيبا فى حادث واحد إصابات متماثلة فطالبا بتعويض يكون تعويض مدير الشركة كبيرا بينما يكون تعويض العامل تافها ضئيلا (١) .

وقد جرى الشرع المصرى على هذه الطريقة فيما حدده من تعويضات عن إصابات العمال أثناء عملهم بإصابات تؤدى إلى تعطيلهم أو عجزهم أو وفاتهم حيث أوجب أن يكون تعويض العامل على حسب مرتبه فى مدة معينة فإن كان مرتبه كبيراً كان التعويض كبيراً وإن كان مرتبه صغيراً كان التعويض كذلك

وليس من شك فى أن فى هذا خرقا لقانون المساواة ، وقد يكون لصاحب المرتب الصغير من الأولاد والأهل الذين يعولهم ما يفوق من يعولهم صاحب المرتب الكبير.

أما الشريعة الإسلامية فلم تراع هذا فى باب الأرش والديات بل سوت بين الناس وبذلك كانت أعدل وأسمى وأعمق .

إعفاءات أخرى من المسئولية :

وكذلك تعنى القوانين الوضعية رؤساء الدول الأجنبية رؤساء كانوا أو ملوكا من أن يحاكموا على ما يرتكبونه من الجرائم فى أى بلد آخر غير بلادهم سواء دخلوه بصفة رسمية أم متنكرين ، وهذا الإعفاء يشمل كل أفراد حاشية الملك أو رئيس الجمهورية .

وتعنى القوانين الوضعية أيضا المفوضين السياسيين الذين يمثلون الدول الأجنبية من أن يسرى عليهم قانون الدولة التى يعملون فيها ، ويشمل الإعفاء حاشيتهم وأعضاء أسرهم ، ولهذا الإعفاء أضراره فكثيراً

(١) التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى ج ١ ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ما ينحرف هؤلاء عن أغراضهم التي بعثوا من أجلها إلى التجسس على الدولة التي هم فيها أو إساءة استعمال سلطتهم ، ولعلنا على ذكر من أعضاء بعض البعثات الأجنبية الذين استغلوا مراكزهم في التجسس على بلادنا ، ومحاولتهم التخلص من المسئولية استناداً إلى هذا الإعفاء .

وكذلك تعنى القوانين الوضعية بمثل الشعب في البلاد النيابية من العقاب على ما يصدر منهم أثناء تأدية وظائفهم من الأقوال ، وقد أخذ الدستور المصري بهذا الاتجاه ، والمقصود من هذا الإعفاء إعطاء أعضاء البرلمان قدراً من الحرية يساعد على أداء وظائفهم حق الأداء ، وهـــذا التمييز اعتداء صارخ على المساواة ، لأن هناك من الوطنيين من يشتغل بالمسائل العامة وله فيها تأثير أكثر مما لأي عضو من أعضاء المجالس النيابية ، وبالرغم من ذلك فهم محرومون من مثل هذه الحصانة .

وبعد هـذه المقارنات يتبين لنا جليا أن نظرية المساواة في القوانين الوضعية لا تزال مهيضة الجناح ، إذ لم تسو بين الرؤساء والمرءوسين ، ولا بين الحاكمين والمحكومين ولا بين الفرد والفرد ، ولا بين الجماعة والجماعة ، ولا بين الغني والفقير .

وقد يدهش بعض الذين لا يعلمون أن يعلموا أن نظرية المساواة التي لم يتم نضجها وتكوينها في القانون الوضعي الحديث ، لـ القانون القديم قد نضجت تمام النضج ووصلت إلى أقصى درجات الكمال في الشريعة الإسلامية الغراء السمحة التي ليلها كنهارها ، وعرفت هذه المساواة التامة من منذ أربعة عشر قرنا بينما لم تعرف القوانين الوضعية هذه المساواة إلا في آخر القرن الثامن عشر .

فإذا أراد طلاب المساواة التامة أن ينشدوها في تشريع فليكن ذلك في الشريعة الإسلامية وسيجدون فيها من أصالة التفكير ، وعدالة التشريع ، وجلال الصدق ، وسمو الحكمة ، وعمق النظرة ما يستولي على قلوبهم ، وينطق ألسنتهم بقول الحق تبارك وتعالى : « وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ؟

محمد محمد أبو شهبة

تصويب في العدد الماضي

في صفحة ٤٧٥ العمود الثاني سطر ١٨ الصواب قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خـــيراً يره ... إلى آخر الآيات الكريمة » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

شخصية المسلم

للأستاذ الحسيني أبو فرحه

— ٢ —

خلقه :

وإذا تحدثنا عن خلق المسلم يتشعب بنا الحديث أيما تشعب ، وكيف لا ، وقد سئلت عائشة رضوان الله عليها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو النموذج الكامل للشخصية الإسلامية فقالت : « كان خلقه القرآن » .

ولكننا سنجتزئ الحديث فنتحدث عن ثلاث صفات تقل بين المسلمين في يوم الناس هذا راجين أن يهتم بها المسلمون ، ألا وهي ضميره وذوقه وشجاعته الأدبية .

فأما ضميره : فالمسلم صاحب ضمير حي يقظ ، يحاسبه على الصغير والكبير والنقير والقطمير : « هذا أبو حنيفة قد بعث بمتاع إلى حفص بن عبد الرحمن شريكه في التجارة ، وأعلمه أن في ثوب منه عيباً فبينه للناس ، فباع حفص المتاع ونسي أن يبين العيب ، واستوفى ثمنا كاملا لثوب غير كامل ، وقيل إن الثمن كان ثلاثين ألفاً ، فأبى أبو حنيفة إلا أن يبعث لشريكه يكلفه أن يبحث عن المشتري ولكنه لم يهتد إلى الرجل ، فأبى أبو حنيفة إلا فصالا من شريكه بل رفض أن يضيف الثمن إلى حر ماله ، وتصدق به كاملا » (١) .

ويروى إنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان ، بعضها قيمتها أربعمائة والبعض الآخر قيمته مائتان ، فذهب إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان ، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة ، فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها واشتراها ، فمضى بها وهي على يديه ، فاستقبله يونس فعرف حلته ، فقال للأعرابي : بكم اشتريت ؟ قال : بأربعمائة ، فقال له يونس : إنها لا تساوي أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردها ، فقال له الأعرابي : هذه تساوي في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيتها ، فقال يونس : انصرف معي فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم ، وخاصم ابن أخيه في ذلك ، وقال له : أما استحييت ، أما اتقيت الله ،

(١) من كتاب : « أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام » للأستاذ عبد الحليم الجندي .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ، فقال له : والله ما أخذها إلا وهو راض بها ، قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟

وروى عن محمد بن المنكدر أن غلامه باع لأعرابي في غيبته شقة من الخسيات بعشرة . فلم يزل يطلب ذلك الأعرابي طول النهار حتى وجده . فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة . فقال له المشتري : يا هذا قد رضيت . فقال ابن المنكدر . وإن رضيت فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا ورد عليه خمسة » .(١)

ومفتاح هذه الحوادث الثلاث هو قول يونس بن عبيد لابن أخيه : « أما استحييت أما اتقيت الله . ؟ » نعم إنه الضمير الحي اليقظ ، وإنها تقوى الله ذلك ما يثيره الإسلام في النفس الإنسانية بقوة حين تستشعر روحه ويمتزج بها . وتخالطها بشاشته . ورحم الله ماعزا والغامدية حين جاء كل منهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معترفا بين يديه بجريمة الزنا وطالبا التطهير . وما هو التطهير إنه الرجم بالحجارة حتى الموت .

وإن وراء هذه النماذج التي عرضناها لعشرات ومئات من أمثالها في كل منحى وكل اتجاه . وحسبنا منها هذه المثل القليلة لتشير إلى الآفاق التي تحلق فيها الشخصية الإسلامية . وتستعلي فيها على جميع الملابسات والضرورات على حب النفس والحياة . وحب المال والجاه .

ذوقه :

لقد نهج الإسلام نهجا حكيما ليطبع المسلمين على سلامة الذوق ودقة الإحساس والمحافظة على شعور الغير . ونقرأ الكثير من ذلك في كتاب الله وسنة رسوله .

من ذلك أنه لما تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش أولم لأصحابه وليمة . فلما طعموا انصرف بعضهم وتخلف آخرون ، وبذل عليه السلام عدة محاولات ليخرجوا ، واستحيا أن يصارحهم بهذه الرغبة .

فلم يخرجوا أيضا . وأخيرا وبعد مضى جانب كبير من الليل . خرجوا متعاقبين وفي ذلك نزل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق (١) » .

---

(١) عن كتاب « الرسالة الخالدة » . للأستاذ عبد الرحمن عزام .

(١) الأحزاب ـ الآية (٥٣) .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وبذلك قرر الإسلام مبدأ عاما من مبادئ الذوق السليم . ألا وهو ألا يثقل الزائر على المزور بطول المكث عنـــده طولا يتضرر به .

ويقرر الإسلام مبدأ الضيافة . ويضع له أسساً سليمة : تحول بينه وبين الانحراف عن غايته . فيجعل إكرام الضيف ثمرة للإيمان بالله واليوم الآخر والضيافة ثلاثة أيام . ويعطى المجتاز زاداً ليوم وليلة . وما زاد على ذلك فهو صدقة . وينهى الإسلام الضيف أن يزيد على ذلك حتى لا يوقع صاحب البيت فى حرج قد يدفعه إلى إيذاء ضيفه . .

فعن أبى شريح خويلد بن عمرو رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام . فما كان بعد ذلك فهو صدقة . ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه [1] » . وينعى الإسلام على هؤلاء المغرمين بالجدل ، بالحق والباطل ، هؤلاء الذين يجعلون من أنفسهم حزب معارضة فى جميع الظروف والأحوال . لا لشىء إلا للجدل ، والجدل فحسب . إذا حدثت أحـــدهم بأن الشمس تشرق من المشرق سرعان ما ينبرى مفنداً رأيك زاعما ومؤكدا أنها تشرق من المغرب . فيجرح شعورك ويؤذى وجدانك . ويا عجبا لهؤلاء ، لا يرضيهم أن يكون بالمجلس صامت فتراهم يحوجونه بالأسئلة حتى يجروه إلى جدلهم ولجاجهم ، إلى هؤلاء وأمثالهم ممن يطلقون العنان لألسنتهم فى الحديث بالحق والباطل . فيقعون فى الكذب ولا يبالون . نسوق حديث أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسّن خلقه [1] » .

وكذلك يكره الإسلام للمسلم أن يكون ثرثاراً يكثر من الكلام بلا داع ، وينعى على هؤلاء الذين يتصدرون المجالس محاولين الاستيلاء على دفة الحديث لا عن علم علموه فينشروه . ولكن حبا فى الكلام لشهوة النفس ، ويوجه الشخصية الإسلامية إلى الصمت الكريم إلا عن حق تذيعه أو علم تنشره يقول الله تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح

(١) رواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه .

(١) رواه أبو داود واللفظ له . وابن ماجه والترمذى وقال حديث حسن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الناس [١] » . ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أنس عنه رضى الله عنه قال : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر فقال : يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر ، وأثقل على الميزان من غيرهما . قال بلى يا رسول الله . قال : عليك بحسن الخلق وطول الصمت فوالذى نفسى بيده ما عمل الخلائق بمثلهما [٢] » .

وعن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى فى الآخرة محاسنكم أخلاقا . وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى فى الآخرة أسوأكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون [٣] » وتبلغ التعاليم الإسلامية بالشخصية الإسلامية الذروة فى الذوق ورقة الإحساس فتطلب من المسلم أن يكون هاشا باشا طلق الوجه . خدوما لإخوانه لا يحتقر من المعروف شيئا مهما صغر . عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق [١] » ، وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ، ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة [٢] » .

وعن أبى جرى الهجيمى رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله : إنا قوم من أهل البادية . فعلمنا شيئا ينفعنا الله به . فقال لا تحقرن من المعروف شيئا أن تأتيه ولو أن تهب صلة الحبل ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، ولو أن تلقى أخاك المسلم ووجهك بسط إليه ولو أن تؤنس الوحشان بنفسك ولو أن تهب الشسع [٣] » .

شجاعته الأدبية :

وأما شجاعة المسلم الأدبية . فالمسلم قد بلغ

---

(١) النساء ـ الآية ١١٤ .

(٢) رواه ابن أبى الدنيا . والطبرانى والبزار وأبو يعلى بإسناد جيد رواته ثقات واللفظ له . .

(٣) رواه أحمد ورواته رواة الصحيح ، والطبرانى وابن حبان فى صحيحه . والثرثار . هو الكثير الكلام تكلفا ، والمتشدق . هو المتكلم بملء شدقه تفاصحا وتعظيما لكلامه ، والمتفيهق . المتكبر .

(١) رواه مسلم ..

(٢) رواه الترمذى . وحسنه . وابن حبان فى صحيحه .

(٣) رواه النسائى ـ والشسع . النعل ...

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الغاية القصوى فى الشجاعة الأدبية ذلك أنه يؤمن أن الأمة لو اجتمعت على أن تضره بشىء فلن تضره إلا بشىء قد كتبه الله عليه ، وإن اجتمعت على أن تنفعه بشىء فلن تنفعه إلا بشىء قد كتبه الله له كما ورد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويؤمن كذلك بقول الرسول الكريم . وقد سئل أى الجهاد أفضل ؟ فقال : « كلمة حق عند سلطان جائر (١) » .

ويحسبنا نموذجا الشخصية الإسلامية . شخصية ظهرت قبيل عصر المماليك وهو عصر يعده الكثير من المؤرخين من عصور التأخر والانحطاط ، ومع ذلك نرى فيه الشخصية الإسلامية فى أكمل صورها . فى شخصية العز ابن عبد السلام . ففى أيام الدولة الأيوبية . لما والى الملك إسماعيل الإفرنج أيام الحروب الصليبية ، وسلمهم صيداء وغيرها من الحصون لينجدوه على الملك نجم الدين أيوب . أنكر عليه العز بن عبد السلام هذه الفعلة . فغضب عليه وعزله واعتقله . ثم بعث إليه بعده ويمنيه . فقال له رسول السلطان : « تعاد إليك مناصبك وزيادة وما عليك إلا أن تنكسر للسلطان » فما كان جواب الشيخ إلا أن قال : « والله ما أرضاه أن يقبل يدى ، يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد (٢) » .

ويسجل المؤرخون للشيخ قصة أخرى أدل على شجاعة المسلم الأدبية ، وقف فيها الشيخ منفرداً أمام نائب السلطان وأمرائه ، وكانوا يقتلون النفس ويزهقون الروح ، وهم يلهون ويلعبون ، وقف السلطان أمام هؤلاء يستذلهم ويضعهم فى موضع العبيد ، بل يبيعهم كما يباعون ، ويتفق ثمنهم فى مصالح المسلمين .

قال المؤرخون : إن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، سلطان مصر ، أسرف فى شراء المماليك من بيت المال وأسكنهم فى قلعة الروضة ، وأخذ بعد ذلك يعتقهم ويجعل منهم أمراء يتسلطون على رقاب الناس ، ولم يصح عند الشيخ ابن عبد السلام عتقهم ، وأنهم لا بد أن يباعوا ويوضع ثمنهم فى بيت المال ، وكان من بين هؤلاء الأمراء نائب السلطان واجتمع الأمراء وطلبوا الشيخ ليحدثوه فى هذا الأمر العجيب فقال : « لا رأى عندى ولا حكم إلا أن نعقد لكم مجلسا ينادى عليكم فيه للبيع ويدخل ثمنكم إلى بيت المال ، ثم يكون عتقكم بطريق شرعى بعد ذلك » .

ورفع الأمراء الأمر إلى السلطان ، فبعث السلطان إلى الشيخ من يطلب إليه أن يرجع عن فتواه ، فلم يرجع ، فأنكر عليه السلطان أن يدخل فى هذا الأمر الذى ليس من شأنه ،

---

(١) رواه النسائى بإسناد صحيح .

(٢) عن كتاب : أبو حنيفة للأستاذ الجندى .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فغضب الشيخ وأخرج متاعه اليسير وسار به يريد أن يعود إلى وطنه بالشام ، وتسامع الناس أن سلطان البلاد قد غضب على البلد وعلى سلطانها فغضب الناس لغضب الشيخ ، ولحقوا به ولما وصل الأمر للسلطان وعلم بغضب الشعب ، أسرع السلطان فركب بنفسه وسار حتى لحق بالشيخ وأخذ يلاطفه ويترضاه حتى قبل أن يرجع إلى بيته على شرط أن ينزل الأمراء على رأيه، فقبل السلطان، وعقد الشيخ لهم سوقا ، نودى عليهم فيه للبيع واحداً بعد واحد ، وغالى فى أثمانهم ، وقبضها بنفسه وأنفقها فى مصالح المسلمين ، وكان يوما مشهوداً وأمراً عجبا .

إيمانه وغايته :

إن أخص خصائص الشخصية الإسلامية الإيمان الحى العميق بالله رباً قادراً بيده مقاليد السموات والأرض ، وبيده وحده الضر والنفع : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير »[1] ، وتصرخ فى وجوه المشركين مؤمنة بقوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون »[2] .

والمسلم يؤمن بالبعث أشد الإيمان ويراه أمرا واقعا وحقيقة لا مناص منها ، ويعجب أشد العجب ممن يرى النشأة الأولى فى هذه الحياة ، وينكر النشأة الأخرى فى الحياة الثانية . ويواجه المنكرين للبعث بلسان الحال والمقال بما واجه الله به هؤلاء الجاحدين ، حيث يقول تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون »[1] .

ويؤمن المسلم كذلك بجميع أنبياء الله ورسله وملائكته وكتبه . قال تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله »[2] .

وأما غايته . فهى العمل للدارين : الدنيا والآخرة بروح ثابتة وهمة لا تعرف الكلل ولا الملل . ويعتبر الحياتين الدنيوية والأخروية وحدة متكاملة الدنيا فيها ممر للآخرة .

(١) سورة آل عمران الآية ٢٦ .
(٢) سورة الزمر الآية ٦٧ .

(١) يس ـ الآيات : ٧٨ ـ ٨٣ .
(٢) البقرة ـ الآية . ٢٨٥ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولا يعرف شيئا لقيصر مع الله . بل الأمر كله لله فى الدنيا والآخرة .

ألا وإن المسلم أقوى ما يكون وأشجع ما يكون إذا فجرنا ينبوع الإيمان فى نفسه وإن المسلم أنجح شخص فى الوجود إذا ابتغى بعمله وجه ربه . وإن قوة فى الأرض كائنة ما كانت لا تستطيع أن تنهض لمواجهته إنسانا ربانيا وعبدا روحانيا . وإن التاريخ الإسلامى ليحدثنا عن غرائب وعجائب فى هذا المضمار لا يتسع المقام لذكرها .

ذلك أن المؤمن وقد فجر ينبوع الإيمان فى قلبه وأشرق نوره فى نفسه قد اتصل بسر الوجود . يستمد منه قوته ويستضىء به طريقه ، فهو إنسان قد اتصلت بالله أسبابه : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » (١) ، « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » (٢) ، « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » (٣) .

الحسينى أبو فرحة
عضو بعثة الأزهر بالجمهورية الصومالية

---

(١) الطلاق الآيتان ٢،٣ .
(٢) « ٥ الآية » .
(٣) الكهف الآية ١١٠ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قال البهاء زهير فى الحث على الصبر وكان فى سفينة غرقت ونجا بنفسه :

لا تعتب الدهر فى خطب رماك به ... إن استرد فقدما ظالما وهبا
حاسب زمانك فى حالى تصرفه ... تجده أعطاك أضعاف الذى سلبا
والله قد جعل الأيام دائرة ... فلا ترى راحة تبقى ولا تعبا
ورأس مالك وهى الروح قد سلمت ... لا تأسفن لشىء بعدها ذهبا
ما كنت أول مفدوح بحادثة ... كذا مضى الدهر لا بدعا ولا عجبا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

قصة لسان العرب بين ابن منظور والبخاري

للأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي

نشر السيد الأستاذ « أبو طالب زيان » بعدد فبراير - مارس ١٩٦٣ من مجلة « قافلة الزيت » بحثا مستفيضا نفيسا بعنوان : « المعاجم اللغوية في الحياة العربية » تناول فيه الكلام عن المعاجم اللغوية ومؤلفيها في عصورها المختلفة ، ولم يذكر في هذا البحث كلمة أو إشارة عن معجم لغوي ظل أعواما طوالا يترقب ظهوره علماء اللغة ومحبو البحث والاطلاع ، وتساءلوا في الصحف العربية والمجلات عن السر في عدم طبعه إلى الآن ، لأن مؤلفه من رجالات العلم واللغة والقانون المعروفين ، وله شهرة واسعة بتأليف « قاموسه الفرنساوي العربي » .

نحن نذكر في هذه الكلمة « السر في عدم طبعه إلى الآن » وقد ظل غامضا ولا يعرفه أحد طوال هذه السنين .

* * *

العالم القانوني اللغوي المرحوم « محمد نجاري بك » من كوم النجار محافظة الغربية كان قاضيا بمحكمة اسكندرية المختلطة ، وعالما بالعلوم القضائية والقانونية بمصر .

وقد ألف قاموسه الفرنساوي العربي ، وعرف باسم « قاموس نجاري بك » ، وهو أوسع القواميس الفرنسية العربية ، ضمنه كثيراً من المصطلحات العلمية والسياسية والطبية ، ويقع في أربعة أجزاء ، وطبع بالإسكندرية سنة ١٩٠٣ .

وأراد — رحمه الله أن يتخذ من « لسان العرب » لابن منظور قاموساً جديداً يعرف باسمه ورتبه ترتيبا يخالف ترتيب ابن منظور الذي وضعه له وهو المتضمن لهذين البيتين:

إذا رمت في « القاموس » كشفاً للفظة
فآخرها الباب والبدء للفصل
ولا تعتبر في بدئها وأخيرها
مزيداً ولكن اعتبارك بالأصل

فجعل البحث هو أول الكلمة وما يتلوها من حروف كترتيب « المصباح » للعلامة الفيومي و « مختار الصحاح » ترتيب المرحوم « محمود خاطر بك » وتنفيذاً لهذا المشروع اللغوي الضخم أحضر نسختين من « لسان العرب » المذكور ، واستعمل مقصه فيهما إلى أن وصل إلى « الجزء التاسع عشر » ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى وقد نجاه الجزء العشرون « من حكم « الإعدام » لأن « لسان العرب » يقع في عشرين جزءاً طبعة بولاق الأميرية لا ثلاثين » كما ذكر السيد « أبو طالب زيان »

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى بحثه (ص ٣) ولعله يريد طبعة بيروت وبعد وفاته تقدمت « أسرة الفقيد » بطلب إلى « دار الكتب المصرية » تريد طبع هذا القاموس نظير مكافأة مالية ، فانتدبنا لمراجعة أوراقه وكتابة تقرير عنه .

فذهبنا إلى منزل الفقيد بحى المنيرة ، وفى غرفة بسطوح المنزل رأينا أكواما من الملفات مدشوتة ، ومبعثرة هنا وهناك ، تعلوها الأتربة الناعمة الكثيرة ، وبعد فحصها بدقة وعناية ، ومراجعتها فى عدة أسابيع . وهى على هذا الوضع الشائن الذى قضى المرحوم « نجارى بك » فى عمله سنين طويلة ، كتبنا هذا التقرير ، وكان السر فى عدم طبعه .

وإلى القارئ الكريم نصه حتى لا يتساءل باحث فى عدم طبع هذا القاموس إلى الآن .

* * *

بعد بحثنا وفحصنا « الملفات » التى تشتمل على أوراق « قاموس نجارى بك العربى » ، وتبلغ نحو المائة والخمسين ملفا ، وهى التى جمع فيها ما ورد فى « لسان العرب » لابن منظور ، بعد استعمال مقصه فى نسختين مطبوعتين منه ، وتشتيت شمل مواده ، وتفريقها شذر مذر ، مضافاً إليها ما زاد من البلدان فى « قاموس الفيروزأبادى » ، كما قال المرحوم « نجارى بك » فى المقدمة التى وضعها لهذا القاموس ، ونص عبارته : كل شىء فيه أخذ بلفظه ، أو وضع فى محله ، فقد سلطت المقص على نسختين من الكتاب الأصلى (لسان العرب) ، وقطعت المادة الواحدة أجزاء ، وألصقت تلك الأجزاء على ورق أبيض ، كل جزء فى الموضع اللائق ، والحرف المناسب ، وكذلك فعلت فيما أخذت من القاموس » .

* * *

وأم غاية المرحوم « نجارى بك » ، والهدف الذى يرمى إليه أن يكون قاموسه الجديد مرتبا على الحروف الهجائية لأوائل الكلمات دون أواخرها ، ليكون على النظام المتبع فى القواميس الغربية . ومع الأسف الشديد أن الغاية التى كان ينشدها ويتوخاها فى قاموسه العربى الجديد ، وهى كل مجهوده ، لم نجدها متوافرة فى « الملفات » التى بحثناها وفحصناها ؛ فمن ذلك :

١ — أن أوراق هذه « الملفات » غير مرتبة على الطريقة الهجائية التى كان يتوخاها المؤلف فى الترتيب .

ويظهر أن ذلك نشأ من كثرة تناول الأيدى التى عبثت بهذه الأوراق حتى أصبحت مدشوتة ، وتتطلب مجهوداً كبيراً ، وزمناً طويلا ، لترتيبها على الوجه الأكمل ، فإن الملف الخاص بحرف الكاف يشتمل على المواد الآتية بهذا الترتيب فى الأوراق الملصوقة عليها :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

« كَشْحٌ ، كَشَحَ ، كَشَّحَ ، كَشْبٌ ، كَشَدَ ، كَشْخَةٌ ، كَشْخَنَ ، كَشْخَانَ ، كَشَخَ ، كَشَّخَ ، كَسِرٌ ، كَسِيدٌ ، كَسِيحٌ كَسِيَةٌ ، كَسُومٌ ، كَسُولٌ ، كَسُودٌ ، كَسُوبٌ ، كَسْمَلَةٌ ، كَسَمَ ، كَسْلَى ، كَسْلَانُ ، كَسْلَانَةٌ ، كَسِلَ ، كَسْلَةٌ ، كَسِلَ ، كَسْكَسَةٌ ، كَسْكَرٌ ، كَسْكَاسٌ ، كَسَفَ ، وكَسُفَ ، كَسَّفَ ، كَسَعٌ ، كَسَعَ ، كَسْعٌ ، كَسْطَنٌ ، كَسْطَلٌ ، كَسْطَانٌ ، كَسْطَالٌ ، كَسَسٌ ، كَسْرَى ، كَسْرَات ، كَسِرَ ، كَسَرَ ، كَسْرٌ ، كَسَّرَ ، كَسَدَ ، كَسُدَ ، كَسْحَانٌ ، كَسَحَ ، كَسْحٌ ، كَسِحَ ، كَسَحٌ ، كَسْبَةٌ ، كَسْبٌ ، كَسَالَى ، كَسَاهِم ، كَسَاسِرَة ، كَسَارَى ، كَسَادٌ ، كَسَابِرُ ، كَسَّابٌ ، كَسَّاءٌ ، كَسَأَ ، كَسْءٌ ، كَسٌّ ، كَسٌّ ، كَشَّبَ ، كَشَبَ ، كَشَأَ ، كَشْءٌ ، كَشَّ ، كَسِيلَةٌ ، كَسِيفَةٌ ... ... وهكذا إلخ .

هذا ترتيب أوراق الملف من اليمين إلى اليسار ، ومنه ترى أن المواد التي لصقها المرحوم « نجاري بك » لم يراع فيها الترتيب الهجائي بالدقة التي يجب أن تكون في وضع القواميس .

وفي الملف من اليسار إلى اليمين المواد الآتية :

كَشِحَ ، كَشَحٌ ، كَشْءٌ ، كياسم .

٢ — وجود أوراق من القاموس غير موضوعة في أماكنها لمراعاة الترتيب ، فإن أوراقا من حرف الكاف غير مرتبة وخارجة عن ملفها الخاص .

٣ — عدم وضع أرقام مسلسلة على أوراق كل ملف تدل على أن المؤلف انتهى من ترتيب هذا الملف ترتيباً نهائياً وكاملا من كل وجه .

٤ — حرف الراء ، وهو موضوع في عدة ملفات ، وجدناه مع ما فيه من تقديم وتأخير في ترتيب المواد مدشوتاً مع حرف الألف .

٥ — بعض الملفات مكتوب على ظاهرها حرف ، وبداخلها حرف آخر ، كما كتب على ملف حرف (غ) وبداخله أوراق حرف العين .

وأغلب الملفات لا يمكن الاهتداء إلى ما بداخلها من حروف .

٦ — وجود بعض كلمات ملصقة على الورق وغير متصلة بكلام قبلها أو بعدها .

٧ — الأوراق في بعض الملفات موضوعة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

على غير نظام ، فتارة نراها منظمة ، ومرة نجدها مقلوبة .

* * *

ومما هو جدير بالذكر أن المرحوم « نجارى بك » أغفل أشياء كان يجب ألا يتركها ، لأنها ماسة بقاموسه الجديد ، بل هى من الضروريات لإتمام عمله ؛ وهى :

(ا) أنه أغفل جميع التصحيحات التى نبه عليها السادة الأساتذة مصححو مطبعة بولاق فى مواضعها بهوامش الطبعة التى سلط عليها مقصه .

(ب) أهمل جميع التصحيحات التى أشار إليها العلامة اللغوى المرحوم « إبراهيم اليازجى » ونشرها بمجلته « الضياء » فى حال حياته .

(ج) أهمل جميع التصحيحات التى نبه عليها علامة عصره ، وإمام زمانه فى اللغة والأدب المرحوم الشيخ محمد محمود بن التلاميد الشنقيطى بنسخته الخاصة المحفوظة بدار الكتب المصرية ، والتى أشار إليها بهوامش كتاب « المخصص » لابن سيدة .

(د) لم نجد للمرحوم « نجارى بك » أى تنبيه أو إشارة لما ورد فى اللسان أو القاموس من أخطاء ، وقد نبه عليها العالم اللغوى المحقق الجليل المرحوم « أحمد تيمور باشا » فى كتابين خاصين له أحدهما : « تصحيح لسان العرب » فى قسمين - وقد قمنا بنشرها سنة ١٩١٧ ، ١٩١٨ - والآخر : « تصحيح القاموس » . وكتصحيحات العالم الجليل المرحوم الشيخ محمود مصطفى ، والعالم الجليل الشيخ محمد البلبيسى ، وقد توليا رياسة التصحيح بمطبعة بولاق الأميرية ، وغيرهم .

(هـ) زاد المرحوم « نجارى » بخط يده فى بعض المفردات كلمات ولم يعين المصدر الذى استقاها منه ، ولكن بعد بحثنا وتحقيقنا وجدنا أنه نقلها من اللسان أو القاموس ، وكنا نظن أنه أضافها من غير هذين الكتابين لزيادة الفائدة وتعميم النفع .

(و) أغفل المرحوم « نجارى » فى قاموسه الجديد - مع إشارته فى المقدمة إلى أنه اقتصر على ما فى اللسان والقاموس - عملا ضرورياً وهو عدم إضافة المفردات اللغوية المبثوثة فى كتب اللغة . وهى التى أهملها صاحب اللسان أو صاحب القاموس ، وكثيرة ما هى ، ليكون قاموسه كاملا ، وعمله مستوفياً .

(ز) عدم تنبيه المرحوم « نجارى » فى المقدمة على أنه : هل يعتبر الحرف المشدد بحرفين ، أم بحرف واحد .

(ح) لم ينبه أيضا على أنه : هل يعتبر التاء المربوطة هاء أم تاء .

« الطريقة المثلى لإعادة طبع لسان العرب » :

والطريقة المثلى فى نظرنا لإعادة طبع هذا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الكتاب النفيس ، الجليل النفع ، العظيم الفائدة ، أن يطبع كما هو ، مع إضافة التصحيحات التي أشرنا إليها ؛ ويحسن أن يراعى ، القسم الأدبي ، الذي سيتولى تحقيقه وتصحيحه الملاحظات الآتية :

(أ) أن يتوخى فيه الترتيب الذي في طبعة كتاب « أساس البلاغة » للإمام اللغوي الجليل العلامة الزمخشري ، بأن توضع مواده في نهرين .

(ب) أن يبتدئ كل معنى جديد في المادة بأول السطر .

(ج) ويحسن ، بالقسم الأدبي ، حين مباشرته لهذا العمل أن يجعل بين يديه كثيراً من كتب اللغة الأخرى الموثوق بها - مخطوطة ومطبوعة - ككتاب « المخصص » لابن سيده و « تاج العروس في شرح القاموس » للإمام اللغوي العلامة الزبيدي وكتب الأضداد في اللغة للأصمعي وابن الأنباري والسجستاني وابن السكيت والصاغاني وغيرهم ممن لهم رسائل خاصة في اللغة لا يعرفها إلا المشتغلون بالبحث والتحقيق ، وقليل ما هم .

(د) البحث عما نثر بين ثنايا صفحات كتب اللغة والأدب من الكلمات اللغوية المفسرة التي أهملها صاحب اللسان أو صاحب القاموس كأمالي القالي ، والكامل للمبرد ، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني وغيرها .

وتحت يدنا - ولله الحمد والشكر - الكثير من هذه الكلمات مكتوبة بخطنا في جذاذات ، وقد ذكرنا بعضها في مؤلفنا : « أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني » ، الذي نشرته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥١ (ص٣٧٢-٣٨٣) وبذلك ينشر للعلماء والمتأدبين أوسع كتاب في اللغة وأكثره فائدة .

وقد علمنا أخيرا أن « المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطبع » بوزارة الثقافة والإرشاد القومي عازمة على إعادة طبعه ووزعت فعلا بعض أجزائه على أفراد ممن ليست في بعضهم الخبرة التامة في التحقيق العلمي والبحث اللغوي ، والتصحيح الفني ، وهي الطامة الكبرى ، والجناية العظمى ، لإسناد مثل هذه الأعمال إلى غير أهلها .

ومع الأسف الشديد أن « لسان العرب » المذكور أعيد طبعه في بيروت في عدة أجزاء وهي مملوءة بالأغلاط ، والتحريفات ولم يراع في تحقيقه وتصحيحه الدقة والعناية ، وتوخي الصواب .

وبعد الاطلاع على المذكرة التي رفعناها إلى دار الكتب بشأن « قاموس تجاري عربي » والعيوب التي ذكرناها لم توافق على طبعه ، وكان هذا هو السر في عدم طبعه ونشره .

وعلمنا أن أسرة الفقيد تقدمت به إلى « المجمع اللغوي » لطبعه فلم يوافق أيضا .

محمد عبد الجواد الأصمعي

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين العالم الإسلامي وأوربا

حرية العقيدة في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ٢ —

شواهد من التاريخ السياسي للإسلام على كفالة حرية العقيدة للذميين :

ولقد اغتبط المسلمون بانتصار المسيحية التي يمثلها الروم بزعامة هرقل على المجوسية التي تمثلها الفرس بزعامة كسرى سنة ٦١٤ ميلادية ، ذلك أن المسيحيين أهل كتاب كالمسلمين . وقد ظلت خلة الإخاء بين أتباع محمد وأتباع عيسى وثيقة في حياة النبي برغم ما كان بين الفريقين من مجادلة ، على خلاف ما كان بين المسلمين واليهود من تهادن أول الأمر ثم عداوة استمرت بخيانة اليهود وانتهت بهزيمتهم ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

وبرغم عدم إقرار المسيحية بنبوة محمد كما يقر الإسلام بنبوة عيسى وعداوة اليهود للإسلام وخياناتهم له أحسن المسلمون معاملة الجميع وكفلوا لهم حرية العقيدة . وعلى حين قاوم المسيحيون من الرومان دعوة الإسلام وبدأوا يأتمرون به وبأهله ، وشنوا عليهما الحروب التعصبية ، ظل المسلمون على تسامحهم ، فالتزموا في حربهم موقف الدفاع ، وحين انتصروا لم يكرهوا أعداءهم على الدخول في الإسلام ، عملا بأحكام القرآن في رعاية أهل الكتاب وكفالة حقوقهم ، وبوصية الرسول بالمعاهدين والذميين خيرا ، وما جاء بكتابه إلى المقوقس عظيم القبط من دعوة إلى الدين دون إلزام أو إكراه .

والشواهد التاريخية على ذلك في عهد الرسول وخلفائه لا تقع تحت حصر . فقد أقام المسلمون علاقات ودية حميدة مع المسيحيين من أهل الحبشة ولم يفكروا يوما — وهم في قمة انتصاراتهم — في التطلع إلى فتح هذه البلاد ، ذلك أنها لم تقف في وجه دعاتهم بل كفلت لهم حرية الرأي ، فحق على المسلمين احترام حريتها في العقيدة .

وقد بلغ من شأن كفالة الحقوق المدنية والاجتماعية والاقتصادية للذميين ما روى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عن الخليفة العادل عمر بن الخطاب حين رأى شيخا يهوديا يتكفف الناس ، فسأله عن السبب فأجاب : أسأل الجزية والحاجة والسن. فقال عمر : « ما أنصفناك ، أكلنا شبيبتك وتركناك عند الشيخوخة » ، وأمر بطرح جزيته ، وأن يعال من بيت مال المسلمين هو وعياله .

ومن ذلك قول سيف الله خالد بن الوليد فى حديثه عن سياسته فى الأقطار التى وقف عليها علم الإسلام : « وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه - طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام » . وكذلك ما كتبه هذا القائد الإسلامى العظيم إلى صلوبا ابن نسطونا وقومه حين أوغل فى الفرات فى شهر صفر من العام الثانى عشر الهجرة : « إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة ، ومامنعناكم فلنا الجزية وإلا فلا » .

كما ورد هذا المبدأ أيضاً فى رد الأمراء بأمر أبى عبيدة فى حمص ما كانوا أخذوه من الجزية من أهلها وما إليها حين جلوا عنها ليتجمعوا لقتال الروم وقالوا لأهل البلاد : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم قد اشترطتم علينا أن تمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك الآن ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم » . وكذلك فعل أبو عبيدة فى دمشق حين كان يتجهز لليرموك . وكتب سويد بن مقرن قائد عمر لزربان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان فى العام الثامن عشر الهجرة : « إن لكم الذمة وعلينا المنعة ، على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم على كل حال ، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه أى جزيته » . وكتب عتبة ابن فرقد عامل عمر لأهل أذربيجان : « ... ومن حشر منهم فى سنة « أى جند » وضع عنه جزاء تلك السنة » . وورد مثل ذلك فى عهد سراقة عامل عمر لشهر براز : « ... أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا ، على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك .. فإن حشروا وضع ذلك عنهم » . وصالح الجراجمة قرب أنطاكية المسلمين « على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام وألا يؤخذوا بالجزية » .

وقد اطرد انتشار حرية العقيدة بانتشار الإسلام عبر العصور اللاحقة فى السلم والحرب معاً ، وسايرتها المساواة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات . وحفظ لنا التاريخ وثائق كثيرة تدل على تمسك حكام الإسلام وقواده بهذا المبدأ الإنسانى العظيم ، وبلغ

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من ذلك أن جحافل التتار حين غزت البلاد الإسلامية وأسرت كثيراً من المسلمين والنصارى ثم هزمها المسلمون فى الشام، وأسلم ملوكها، طالب شيخ الإسلام ابن تيمية إمام العلماء فى عصره أمير التتار قطلوشاه بإطلاق سراح الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى عليه أهل الذمة، فقال له ابن تيمية: لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولاندع أسيرا من أهل الملة ولا من أهل الذمة، فأطلقهم.

وبفضل حرية العقيدة التى كفلها الإسلام كسب أنصارا له فى كل مكان، وكانت هذه الحرية من أهم العوامل التى أسهمت فى انتصاره فى جميع المعارك التى خاضها.

فقد كانت فتوحه السلمية فى إقرار الحق والحرية والعدالة تسبق أنباء معاركه، ومن ثم لم يجد أعداؤه استجابة وغيرة من شعوبهم، بل لقد مهد بعض هذه الشعوب لدخول المسلمين ديارهم لتخليصهم من طغيان حكامهم ورجال دينهم، واستطاعت الدولة الإسلامية الناشئة فى خلال فترة وجيزة من الزمن أن تقهر أقوى سلطتين سياسيتين معاصرتين لها وهما دولتا: الفرس والروم وأن تبسط سلطانها فيما بعد على معظم أرجاء العالم الذى كان قائما فى ذلك الحين.

وبفضل هذه الحرية الدينية لم يعرف الإسلام، عبر تاريخه الطويل، الحروب الدينية التى وصمت جبين العالم وعوقته عن تطوره حينا من الزمن.

لا سلطان لرجال الدين على سائر الرعية.

وقد عصم الإسلام من هذه البربرية عقيدته السمحة التى تجعل الدين لله وتحرم الوساطة بينه وبين الفرد، فلا سلطان لرجال الدين على سائر الرعية ولا وصاية لهم على الناس:

«إن عبادى ليس لك عليهم سلطان».

فلا إمام سوى العقل المتحرر بنور من الحق الذى بعث الله به أنبياءه هداة ومرشدين ولا رهبانية ولا كهانة فى الإسلام، ولا صكوك غفران، وإنما صلة المرء بربه صلة خالصة تنبع من أعماق روحه بلا شريك ولا وسيط، ومرد الأمر كله إلى الله:

«بل لله الأمر جميعاً».

هو الذى يجزى المرء بما كسبت يداه، والطاعة له سبحانه ولرسوله ولأولى الأمر ما عملوا بأحكام الشريعة التى نزلت لصالح البشرية، والدين عبادة لا وظيفة فلا عروش فيه ولا تيجان وإنما نظام يقوم على العدل والمساواة.

والمشتغلون بشئون الدين فى الإسلام لهم ما لغيرهم من حقوق وعليهم مثل ما عليهم من التزامات، ولا فضل لمخلوق على آخر إلا بالتقوى، بل إن الإسلام لم يعرف بين أهله فئة باسم رجال الدين، وإنما عرف العلماء والمفكرين والمصلحين والقادة، لأنه لا طبقية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فيه ولا امتيازات ، فالكل فى ظله سواسية ، وميزان التفضيل هو العمل الصالح .

على أن الإسلام يحبذ الاشتغال بأمور الدين علما وتفقها لا صناعة وارتزاقا ، فالتفقه فى الدين ليس حكرا على أحد ولا وقفا على جماعة بعينها . فالإسلام عقيدة وتفكير ، والعقيدة مناطها القلب ، والتفكير مناطه العقل ، ولا قوامة لبشر على قلوب الآخرين وعقولهم .

وقد كان علماء الدين فى الإسلام من أهل الصنائع والحرف فلم يتخذوا علمهم مصدرا للتكسب والاحتراف أو ينصبوا من أنفسهم ولاة على الشعب . فإذا أسندت الدولة إليهم مناصب معينة تتفق ومؤهلاتهم الخلقية والعلمية ، فإن ما يتقاضونه من أجور عن هذه الوظائف العامة هو نظير لما يؤدونه للدولة من أعمال مثل الفتوى والقضاء والحسبة ، شأنهم فى ذلك كسائر المسلمين العاملين .

وكان المسجد فى الإسلام غير المعبد فى الأديان أو المعتقدات الأخرى إذ ارتبطت به العبادة وتفانى فيه العابدون ، فلا قيام للدين والمتدين فى غير هيكله ولا غنى لهما عنه . وجاء الإسلام ليحرر الناس من هذا الجمود ، فالإنسان ـ لا المكان ـ هو وحدة الدين ، والله يعبد فى المسجد ويعبد فى كل مكان ، فأينما تولوا فثم وجه الله . والناس فى حق العبادة متساوون ولا يتوقف قبول شعائرهم على كهنة أو كهانة .

بل إن المسجد هو منارة إشعاع للفكر والثقافة فى شئون الدين والدنيا جميعا .

ومن خلال هذه الفطرة المتكاملة فى الحرية والأحرار نجت الأمة الإسلامية مما ابتليت به الأمم القديمة من تحكم الكهان واحتكارهم أرزاق العامة باسم الدين ، فقد استغلوا تهاويلهم ومسوحهم وطقوسهم للتضليل ، وخلعوا على أنفسهم صبغة القادة المتحدثين باسم الله والذين رفعت عنهم التكاليف ، واتبعتهم الرعية فى ضلالهم .

التعصب الدينى فى العصور الوسطى بأوربا :

وعلى النقيض من هذه الحرية الدينية التى كفلها الإسلام ، كانت أوربا فى العصور الوسطى ، فقد شن حكامها وكهانها حروبا دموية ضارية انغمست فيها شعوبهم طوال عدة قرون ، واستبيحت فيها باسم الدين ، والدين منها براء ، جميع المقدسات الإنسانية من حياة وحرية وكرامة وعدل .

وعلى حين سجل المسلمون فى الحروب الصليبية من صفحات السماح والمروءة والنبل بآداب الفروسية الإسلامية النبيلة فى معاملة الخصوم ما شهد به حتى غلاة أعدائهم ، ارتكب الصليبيون من المذابح ما سود صحائف التاريخ . وكانت تلك الحملات الوحشية التى شنتها أوربا على الديار الإسلامية حروبا عدوانية استعمارية شعارها الجور

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والإكراه فى الدين ، فلم يكن للمسلمين مناص من التصدى لها بالقوة دفاعا عن النفس وذوداً عن حرية العقيدة .

ومن الأمثلة الصارخة على إنكار حرية الإنسان فى عقيدته ما فعلته أوربا المسيحية بالأندلس بعد اندحار الحكم الإسلامى فيها ، فقد بلغ بها التعصب ضد الإسلام وأهله ما لم تشهد له الإنسانية مثيلا فى أشد العصور ظلاما وهمجية ، فلم يقف فى سبيلها وازع من ضمير أو رادع مما اصطلح عليه البشر حتى فى جاهليتهم من معانى الوفاء بالعهود والمواثيق ، ولا يكاد المرء يصدق ما أثبته التاريخ من إعمال الكاثوليك السيف فى رقاب قرابة ثلاثة ملايين من المسلمين تنكيلا وانتقاما ، ولم يبق من المسلمين على قيد الحياة إلا من قدرت له النجاة بالعودة إلى إفريقية ، ومن أذهله الهول والفزع فارتد عن دينه إلى دين العتاة المعذبين .

على أن أمر التعصب الدينى ومصادرة حرية العقيدة لم يكن وقفاً على الحروب الصليبية والأسبانية ضد الإسلام ، بل شمل أوروبا المسيحية نفسها فى العصر الوسيط ، فلم تفرق محاكم التفتيش فى عقوباتها الوحشية بين المسلمين فى الأندلس العربية وبين المسيحيين الذين لا يدينون بالمذهب الكاثوليكى فى أسبانيا وسائر الممالك البروتستنتية فى أوربا ، وكم طارد الأباطرة من اختلف معهم فى الدين وساقوهم إلى المجازر بلا شفقة مما يذكر بمطاردة الوثنية للمسيحية فى عهدها الأول فى الدولة الرومانية ، ثم انتشار المسيحية فى أنحاء تلك الامبراطورية ومطاردة الامبراطور الذى اعتنقها للوثنية فى المملكة وخارجها ، ولقد استمرت الاضطهادات الدينية فى أوربا منذ القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر ومذبحة « سانت بارتلمى » هى أبلغ دليل على ذلك .

ولم تكد أوربا تتنفس الصعداء من هذه الفوضى التى خاضتها فى لجج من دماء ، وما أهل القرن السابع عشر حتى عادت المنازعات المذهبية من جديد ، فقام صراع دموى رهيب بين الملوك البروتستنت والملوك الكاثوليك بألمانيا استمر ثلاثين عاما فجلب الوبال على الشعوب وأنهك مواردها وأصابها بالانحلال والفاقة .

ولا شك أن مصدر تلك الصراعات الدينية التى عمت أوربا فى عهود الإقطاع هو طبيعة النظام الدينى فى تلك العهود ، فقد كانت الكنيسة هى القوامة على شئون الدين وجعل رجالها من أنفسهم أوصياء على الناس يرسمون لهم أقدارهم ومصائرهم على هواهم . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل جاوزت الكنيسة سلطتها الدينية إلى السلطة الزمنية فنازعتها أصحابها ، وقامت زعامة دينية مقدسة فى روما

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تحل محل سلطة القيصر الزمنية ، وتركزت السلطة الروحية فى شخص البابا الذى لا يخطئ وسرعان ما دانت لسلطانه الدينى الشعوب المجاورة وامتد نفوذه إلى بيزنطة بعد ضعفها ثم زوالها ، وكان رجاله يقتهزون خوف الناس من العقاب ورغبتهم فى ثواب الآخرة ليؤكدوا سلطان الكنيسة الزمنى ، فكانوا يفرضون ضريبة العشور لصالحها ويقررون العقوبة على المخالف لتعاليمها لا فارق فى ذلك بين الأمير ورعيته ، ويحرمون من عطف الكنيسة من لا يرون فى تصرفاته ما يتفق مع سياستهم ، كما يمنحون البركة ووسائل الصفح والغفران التى يتوجه بها صاحبها دون مناقشة أو حساب إلى جنات الخلد الغناء الفيحاء !

وهكذا تأصل سلطان البابا وخضع له الأمراء ومن خلفهم من الملوك والعواهل بلا قيد ولا شرط ، وسار العالم المسيحى فى طريق ممهد هو إرضاء الرب من طريق طاعة البابا روحيا وحكم الامبراطور زمنيا ودنيويا ، هذا الامبراطور الذى يستمد شرعية سلطته من الكنيسة ويحكم باسمها ونيابة عنها ، وما لبث هذا التعاون أن انهار تحت معاول الانقسام والشحناء بين البابا والامبراطور أو بين القوتين الروحية والزمنية وظل الصراع على السلطة بينهما طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فضعفت سلطة الامبراطور وفقد رجال الدين قوتهم المعنوية ودب بينهم الفساد وسادت الأطماع الدنيوية ثم عمت المجازر الدينية ، فولى السلام شعار المسيحية .

التسامح فى الدولة الإسلامية :

وغنى عن الذكر أن نبين ملامح الصورة المقابلة للدولة الإسلامية فى تلك العصور ، وأبرز تلك الملامح والسمات المشرقة روح الإخاء والمودة والتكافل بين المسلمين بعضهم وبعض ، على اختلاف أصولهم وألوانهم وأوطانهم ، وروح التسامح والألفة بينهم وبين أبناء العقائد والديانات الأخرى ، فلا تعصب ولا عنصرية ، ولا تمايز ولا أحقاد بل الكل فى حق الحياة والحرية سواء تحت ظلال الشريعة السمحاء .

ويرجع الفضل فيما ساد العالم الإسلامى من وفاق استمر أحقابا طوالا إلى حرية العقيدة التى دعا إليها الإسلام ، وجعلها إحدى القيم الكبرى التى أرساها احتراما لإنسانية البشر ، ورفعا من أقدارهم وحماية لهم من الهوان ، ودفعا لهم إلى المضى فى سبيل التقدم وعمران الكون .

ولم تكن هذه الحرية مبدأ نظريا فحسب بل كانت تطبيقا عمليا فى عهد رسول الحرية وخلفائه من بعده اهتدى به المسلمون عبر العصور المختلفة ، وسلمت أجيالهم المتتابعة بعضها لبعض هذا المبدأ العظيم أمانة مقدسة لا سبيل إلى انتهاكها لأنها من وحى الله ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وثيقة حاسمة لا سبيل إلى نقضها لأنها من صميم الرسالة الخالدة .

وكانت آيات الكتاب الكريم وتعاليم الرسول ووصايا الخلفاء إلى ولاتهم فى خطبهم ورسائلهم هى الضمانات الكفيلة بتحقيق مبدأ حرية العقيدة لما لأحكامها من قدسية فى قلوب المسلمين وقوة إقناع فى عقولهم .

وعلى أن هذه الحرية شأنها شأن سائر الحريات الإسلامية مشروطة بقيد لا مفر من الالتزام به ، وحد لا ينبغى تخطيه ، ذلك أنه لا يوجد حق مطلق ولا حرية بغير حدود وإنما تكافؤ بين الحقوق والواجبات ، القيد الذى يرد على الحرية الدينية هو ذاته الوارد على غيرها بموجب أحكام الشريعة الإسلامية ونعنى به احترام حقوق الآخرين وحرياتهم وعدم الخروج على نظام الدولة الاسلامية وعقيدتها ، فالإسلام يضرب على يد العابثين بكيانه ، والمستغلين ما خلع عليهم من حريات لتحقيق أطماع ذاتية وانتهاج سلوك يمس سلامة المجتمع وآدابه العامة .

الميثاق وحرية العقيدة :

وفى ضوء القيم الإسلامية العليا التى تسير عليها حكومتنا الشعبية الثورية ، سجل الميثاق الوطنى فى كثير من مواده استنكاره التعصب والإرهاب .

وأفرد فى بابه السابع ، حول الإنتاج والمجتمع ، نصا خاصا للحرية الدينية بقوله :

« إن حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها فى حياتنا الجديدة الحرة » .

ذلك أن هذه الحرية التى كفلها الإسلام هى إحدى القيم الروحية التى وصفها الميثاق فى المادة التالية ، بقوله :

« إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة » .

« ويؤكد الميثاق حرية الانسان فى عقيدته بعد ذلك ، بقوله :

« إن الإقناع الحر هو القاعدة الصلبة للإيمان ، والإيمان بغير الحرية هو التعصب ، والتعصب هو الحاجز الذى يصد كل فكر جديد ويترك أصحابه بمنأى عن التطور المتلاحق الذى تدفعه جهود البشر فى كل مكان » .

وها هى جمهوريتنا تفتح أبوابها - كما فعل المسلمون من قبل - للعلماء الوافدين إليها للإسهام فى نهضتها الكبرى من أبناء الأمم الأجنبية على اختلاف دياناتهم وعقائدهم تيسر لهم فى الرزق ما أقاموا وتكفل لهم الحريات الأساسية للإنسان ، لا تشترط عليهم فى ذلك إلا ما تطالب به أبناءها من احترام سيادة الدولة والالتزام بأنظمتها وقوانينها العامة .

حسن فتح الباب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

دولة الإسلام والعالم

على الحدود ... بين دولتين وحضارتين

مناطق الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

للأستاذ فتحي عثمان

في أخبار الفتوح الإسلامية نجد مؤرخنا الطبري ، المتوفى سنة ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م ، يجمل ما روى عن مسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام وانتقاله من جبهة الحرب مع الفرس إلى جبهة الحرب ضد الروم ، فيقول في أخبار سنة ١٢ هـ (سنة ٦٣٣ م) :

« كان أبو بكر رحمه الله قد عهد إلى خالد أن يأتي العراق من أسفل منها ، وإلى عياض بن غنم - أن يأتي العراق من فوقها ، وأيكما سبق إلى الحيرة فهو أمير على الحيرة ، فإذا اجتمعتما بالحيرة إن شاء الله وقد فضضتما مسالح ما بين العرب وفارس وأمنتم أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليقم بالحيرة أحدكما وليقتحم الآخر على القوم ... ثم قصد خالد إلى الفراض ، والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة ، فأفطر بها رمضان في تلك السفرة التي اتصلت له فيها الغزوات والأيام ... » .

وهكذا رسمت الطبيعة وحدة المجال العربي ، ووحدة المصير العربي . . انتقال داخل ديار العرب بغير حدود ، وحدود طبيعية تقف على مشارف الديار العربية على اختلاف أقطارها لحراسة أمة العرب من غارات المعتدين .

وكانت العراق قبل الفتح الإسلامي في مجال النفوذ الفارسي ، وكانت الشام قبل الفتح الإسلامي في مجال النفوذ البيزنطي ، وكانت الجزيرة ميدان قتال بين الجانبين ... ولكن الظروف الجغرافية كانت تتيح المنافذ الطبيعية للاتصال .

ودخلت العراق والجزيرة والشام في دولة الإسلام ، فاستقامت الحدود على مشارف الشمال ، تعزز الاتصال داخل المجال العربي الإسلامي وتعزز الاتصال بين هذا المجال والخارج ، كما تعزز الدفاع عن دولة الإسلام وحضارة الإسلام في مواجهة أي انقضاض من أرمينية ، أو عدوان من الروم البيزنطيين في آسيا الصغرى .

كتب ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م) عن الموصل .

« المدينة المشهورة العظيمة ، إحدى قواعد بلاد الإسلام ، قليلة النظير كبرا وعظما وكثرة خلق وسعة رقعة ، فهي محط رحال الركبان ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ومنها يقصد إلى أذربيجان وكثيرا ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاثة : نيسابور لأنها باب الشرق ودمشق لأنها باب الغرب والموصل لأن القاصد إلى الجهتين قل ما لا يمر بها ، قالوا : وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق ، وقيل وصلت بين دجلة والفرات ، وقيل لأنها وصلت بين بلد سنجار والحديثة » .

وكتب الاصطخرى (المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) عن حلب :

« عامرة بالأهل جدا ، على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات ... » .

وهكذا امتد الخط بين الموصل وحلب ، أو ما بين الجزيرة والشام ، وكان يليه إلى الإمام منطقة عرفت فى تاريخ النظم الإدارية والحربية بمنطقة الثغور والعواصم ، كان منها ما يلى الجزيرة فى شمالى العراق فسمى بالثغور الجزرية وكان منها ما يلى الشام فسمى بالثغور الشامية .

ويعرف ياقوت الثغر بأنه « كل موضع قريب من أرض العدو ، كأنه مأخوذ من الثغرة ، وهى الفرجة فى الحائط - ومنه ثغر الشام وجمعه ثغور وهو يجمع بلادا كثيرة ... ومرعش من ثغور الجزيرة » وأما العواصم فيذكر عنها ياقوت أنها جمع عاصم وهو المانع والعواصم حصون موانع .

وقد قسم قدامة بن جعفر (المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، النصف الأول من القرن العاشر الميلادى) الثغور إلى برية وبحرية وبرية بحرية ، وقسم الثغور على الحدود الإسلامية البيزنطية إلى شامية وجزرية وبكرية نسبة إلى ديار بكر ثم ثغر قاليقلا فى جهة الشمال ، وكان مما قاله : « إن الثغور المقابلة لبلاد الروم : منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربها من جهة البر ، ومنها بحرية تلقاها وتواجهها من جهة البحر ، ومنها ما يجتمع فيه الأمران وتقع المغازى فى أهلها فى البر والبحر ، وهو اصم هذه الثغور وما وراءها من بلدان الإسلام وإنما سمى كل واحد منها عاصما لأنه يعصم الثغر ويمده فى أوقات النفير .

وقد نقل ياقوت رأيا يعتبر حلب من ثغور الشام ، ورجح أنها لم تكن تعد منها ، على أن أهميتها الحربية ليست محل جدل ، وبخاصة بعد أن صارت قاعدة دولة الحمدانيين الشرقية التى نشأت حول الموصل وامتدت إلى حلب ، وبنى سيف الدولة مجده فى حلب بعد أن دخلها سنة ٣٣٣هـ ، بينما ظل أخوه ناصر الدولة حفيظاً على تراث أسلافه من الحمدانيين فى أرض الموصل ، وقد عدد الرحالة الأندلسى ابن جبير (المتوفى سنة ٦١٤هـ - ١٢١٧م) ، شيئاً من أمجاد حلب ، ومن ذلك قوله :

« فكم هاجت من كفاح ، وسلت عليها من الصفاح ، لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير فى القلاع ، تنزهت أن ترام أو تستطاع ... » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وهكذا قام الاتصال الطبيعي بين أرجاء ديار العرب ، كما قامت حماية طبيعية تمثل خطاً مميزاً ليس فقط فى مجالات الحرب ، بل أيضا فى مجالات الحضارة :

« فالإقليم واضح التحديد عما جاوره ، بفضل تطويق أنواع ثلاثة قوية من الحدود الطبيعية : البحر شمالا وجنوباً ، والصحراء جنوباً ، والجبال (خط زاجروس طوروس) شمالا وشرقا ... فهنا فصل الجبال واضح فى فصل الحضارات والأجناس واللغات الإيرانية والتركية عن الإقليم رغم بعض التسربات الهامشية الثانوية ، فهذه كانت بحق للعالم العربى (سور العرب العظيم) الطبيعى ... والتجانس القاعدى جنسياً ولغوياً ودينياً هو قانون التركيب الداخلى فى العالم العربى ، أما الشذوذ الحقيق فهو الأقليات الدخيلة ، ولكنها لا تمثل إلا نسبة عددية محدودة ...

« والحد الطبيعى الفيزيوجرافى والتاريخى البشرى لسوريا هو جبال طوروس الحاجز الفاصل الحقيق بين القومية العربية والقومية التركية (دولة الروم البيزنطيين قبل الفتح العثمانى) ، وكل المدن التركية الحالية جنوب طوروس تحمل أسماء عربية أصيلة ، ولقد كانت (سوريا الطبيعية) تشمل تاريخياً قيليقية وأطنة « أذنة » ومرسين ، واعترف الحلفاء بتلك الحقيقة فى معاهدة سايكس بيكو السرية سنة ١٩١٥ ، ولكن منذ تخطيط الحدود مع تركيا والحدود السورية تتأرجح باطراد نحو الجنوب ... وكان معنى هذا ضياع قيليقية لتركيا ثم إضافة مدن كلس وعنيتساب وماردين إلى تركيا ، كلها مدن عربية صميمة كان تاريخها منذ الدولتين الأموية والعباسية تاريخ (الثغور) العربية ، أى بمعنى آخر كان نتيجة هذا اقتطاع الظهير الاستيبى التجارى والمنترلاند (الظهير) الطبيعى لمدينة حلب ، فأصبحت رأساً بلا جسم ، ووضع منابع نهرها (نهر قويق) الذى يغذيها بمياه الشرب والرى تحت رحمة الأتراك الذين لم يلبثوا أن حولوه عنها تماما لرى أراضيهم ، كذلك أصبح موقع حلب الاستراتيجى هامشياً خطراً سلبها عنصر (العمق فى الدفاع) ، لهذا أخذت تذوى وتتوقف عن النمو ، يضاف إلى هذا أن الحد السياسى الجديد مفتعل يعتمد على القبائل الرعوية التى تتحرك باستمرار عبرها فى مجالاتها القبلية التقليدية مما يخلق مشاكل وحوادث الحدود المزمنة ، وفوق كل هذا أصبح الخط الحديدى حلب نصيبين فى حدود تركيا ، مما عزل (الجزيرة) بإنتاجها وفائضها الحبوبى الثقيل عن منافذ الساحل وأسواق الأكيومين Oekumene السورى الحقيق ، ولقد أدى ضياع الخط الحديدى السابق إلى ضرورة إنشاء خط جديد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى مشاريع التنمية الاقتصادية السورية الأخيرة ، كما أن توغل الحدود جنوباً لمصلحة تركيا التى تحتفظ بقاعدة جوية ضخمة فى ديار بكر يهدد بإمكان عزل الجزيرة عن النواة الحربية فى حالات الخطر ، ثم فى سنة ١٩٢٢ جاء اغتصاب لواء الإسكندرونة ، وكان معناه سلب نافذة مدينة حلب بعد أن سلب ظهيرها من قبل وزيادة تهديد المدينة عسكرياً بهذا الإصفين المتاخم على بوابة سوريا الشمالية لا سيما مع وجود قاعدة أطنة (أذنة) الجوية عن قرب ، كذلك كان معنى سلب الإسكندرونة ضياع الموارد الطبيعية لمساحة تناهز نصف مساحة لبنان غنية بالمعادن خاصة الكروم والبترول ومن أرطب أجواء سوريا التى تفكو عدم كفاية المياه ومن ثم ضياع أغنى أجزائها بالإنتاج الزراعى ، هذا هذا ربع مليون نسمة أغلبيتهم العظمى من العرب تماما ، أضف إلى هذا ضياع الميناء الطبيعى لسوريا الشمالية التى تعانى أصلا من تعمقها شرقا وبعدها الساحل ...

« وكان مفروضا أن يعطى لواء الموصل لفرنسا - أى لسوريا - حسب معاهدة سايكس بيكو السرية سنة ١٩١٥ ، ولكن انجلترا أصرت على ضمه للعراق لتستحوذ هى على بتروله ، كما أن تركيا كانت تطالب به على أساس أقليته التركية ... »(١)

إن لمنطقة أعالى الشام والفرات أهمية تاريخية حضارية من قديم ، فقد شهدت الدول والحضارات التى قامت على شواطئ بين النهرين (دجلة والفرات) أو على شاطئ البحر المتوسط ، وشهدت العلاقات السلمية والعدائية بين تلك الدول . وتاريخ هذه العلاقات يؤلف قصة طويلة مثيرة : من أبطالها ميتانى وخيتا ، وبابل وآشور ، وفينيقيا ومصر ، وميديا وبارثيا وفارس ، والإغريق والرومان ... إلى آخر الدول التى كانت لها علاقات ومصالح فى تلك الديار التى تسمى الآن بالشرق الأوسط ، والتى كان لها فى الحضارة تاريخ عريق ...

فهذه المنطقة تشغل موقعا هاما من الطرق الطبيعية من برية ونهرية وبحرية .

فنهر الفرات مثلا يفتح أمامها طريقا إلى الخليج الفارسى فالمحيط الهندى والشرق الأقصى ، والبحر المتوسط - وهو منها غير بعيد - يصلها بإفريقية وأوربا ، والطرق البرية تكون شبكة تربط بين المنطقة وبين سائر ديار الشام فى مصر ، كما تربط بينها وبين الجزيرة فى العراق وإيران ، وتربط بينها كذلك وبين أرمينية ، ثم تربط بينها أخيراً وبين آسيا الصغرى فى أوربا وبلاد البحر الأسود .

فلما جاء الإسلام كانت هذه المنطقة تتأرجح بين قوتين عالميتين كبيرتين : الامبراطورية

---

(١) دكتور جمال حمدان : دراسات فى العالم العربى .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الفارسية الساسانية والامبراطورية الرومانية البيزنطية ، ولكل من هاتين الامبراطوريتين فى تنظيم مناطق الحدود وحمايتها خبرات وأساليب ، وقد شهدت منطقة أعالى الشام والجزيرة ، علاوة على أرمينية ـ صراع الامبراطوريتين الكبيرتين على السيادة العالمية وكان للعرب قبل الإسلام دورهم فى حماية حدود كل من الامبراطوريتين ، فقامت إمارتا اللخميين والغساسنة كنوع من دويلات الأطراف أو التخوم أو الدويلات الحاجزة Buffer States .

واستطاع المسلمون أن يصفوا حسابهم مع الامبراطورية الساسانية فى زمن وجيز ، كما استطاعوا أن يأخذوا من الامبراطورية البيزنطية الشئ الكثير ، ولكنها استطاعت أن تثبت فى عقر دارها طويلا ، وترد عن نفسها النوازل ، بل وتباشر الهجوم . وكان بين أيدى العرب فى سالف علاقاتهم مع الفرس والروم سوابق ، كما وجدوا فى الإدارة الحربية الساسانية والبيزنطية تجارب وحفزهم إلى الوقوف دائما على أهبة الاستعداد تربص البيزنطيين بهم ، فضلا عن ظروف دولتهم التى امتدت أطرافها وتعدد رعاياها مما استتبع بطبيعة الأمر من خلافات وانتفاضات ... كل هذه العوامل تفاعلت لتستنبط للمسلمين نظاما لمناطق الحدود يوجه عام ، ولثغورهم الشامية والجزرية التى تطل على عدوهم العنيد ـ الدولة البيزنطية بوجه خاص .

ولم يكن هذا النظام ليتولد فى يوم وليلة بل لا بد من أن يبلغ الكتاب أجله . ومن هنا سار هذا النظام فى عدة أطوار ، وحين نضج أضحت هذه المنطقة فوارة بالحياة . والحياة فيها ليست فى تحركات فيالق الجند ومعدات الحرب فحسب ، بل كان لها حياتها المتكاملة التى تؤدى فيها دورها الحضارى الإنسانى بحكم موقعها الهام بالنسبة لطرق التجارة العالمية وبحكم مركزها الحساس فى الاتصال الحضارى .

* * *

وقعت بلاد النهرين (دجلة والفرات) كما وقعت بلاد الشام فى نطاق المجال العربى قبل الإسلام بكثير . وقد أورد الهمدانى فى (صفة جزيرة العرب) شعراً قديما لبعض آل أسعد بن مليكيكرب تتبع منازل من غادر (الوطن الأم) من العرب ومنازحهم التى نزحوا إليها :

وغسان حى عزهم فى سيوفهم
كرام المساعى قد حووا أرض قيصر
وقد نزلت منا قضاعة منزلا
بعيداً فأمست فى بلاد الصنوبر
وكلب لها ما بين رملة عالج
إلى الحرة الرجلاء من أرض تدمر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولخم وكانت بالعراق ملوكها
وقد طحرت عدنان فى كل مطحر
وحلت جذام حيث حلت وشاركت
هنالك لخما فى العلا والتجبر

ومن هنا جاء الإسلام إلى بلاد النهرين فوجد العرب فى أدناها وأعلاها . وكانت ديار ربيعة ومضر وبكر تحمل أسماء القبائل العربية التى نزلت الجزيرة فى أعالى العراق - قبل الإسلام ، وكانت الموصل على دجلة أجل مدن ديار ربيعة ، والرقة على الفرات قاعدة ديار مضر ، وآمد فى أعالى دجلة أكبر مدن ديار بكر التى هى أقصى الديار الثلاثة شمالا وكان بنو تغلب قد نزلوا فى الجزيرة أيضا كما جاء الإسلام إلى الشام فوجد العرب فى كل مكان ، وفى شمال الشام نزلوا وهم فى خيم الشعر ، ثم ابتنوا به المنازل ...

وكان بقرب مدينة حلب حاضر يجمع أصنافا من العرب من تنوخ وغيرهم ... ، كما يروى البلاذرى . وهكذا كان للمجال العربى نطاقه البشرى بجانب حدوده الطبيعية منذ أمد بعيد ، وامتد العرب إلى هذه الأطراف الحساسة فى خريطة العالم فى ذلك الوقت على مشارف طرق المواصلات وقوى السياسة الكبرى . وقد ذكر شابو Chapot أن الأقليم المتسع المسمى Cyrrhestique قاعدته Cyrrhus قورس عند العرب ، كان يمتد ما بين الفرات وأنطاكية ، وكانت قورس تشرف على الطرق ما بين العراق والجزيرة وما بين أنطاكية وحلب ، كما كانت خط دفاع أمامى عن حلب وأنطاكية ومركزاً للفيلق الرومانى العاشر Fretensis . وقد كانت قورس جزءا من جند قنسرين عند الفتح الإسلامى ، وأورد البلاذرى فى أخبار الفتوح أنها « كانت كالمسلحة لأنطاكية يأتيها كل عام طالعة من جندها ومقاتلتها . وذكر تشارلسورث Charlesworth أن الطرق كانت تنبعث فى عصر الامبراطورية الرومانية من أنطاكية فى جميع الاتجاهات : غربا إلى قيليقية (كيليكيا) ثم تستمر إلى بيزنطة ، وشرقا إلى تدمر والفرات ، وشمالا إلى معابر الفرات الهامة مثل سميساط ، كما كانت أنطاكية ترتبط بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق ثغرها سلوقية « سليوكيا » .

وقد كان إقليم الجزيرة بجانب إقليم أنطاكية يكونان مجالا ممتازاً للحشود العسكرية ، ويتميز بمواصلات ميسرة فى شتى الاتجاهات . ويرجح فيرجريف أهمية أنطاكية بالنسبة للطرق البرية على أهميتها البحرية . وكان الدفاع الرومانى فالبيزنطى فى هذه المنطقة يعتمد على القوات المتحركة المدربة أكثر من اعتماده على المعاقل المحصنة ؟ (يتبع)

فتحى عثمان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الفكر في الإسلام

للأستاذ عباس طه

الإنسان محمول بفطرته إلى اتخاذ عقائد دينية له ، وهذه العقائد يتناولها أكثر المتدينين من آبائهم وقادة أديانهم من طريق التقليد بدون نقد ولا تمحيص . ولكن الإسلام حرم على أهله هذا الضرب من توارث العقائد ، فشرط أن يكون أساسها العقل وسنادها الدليل .

وهذا ما لا عهد للإنسانية به إلا في العلوم الكونية بعد الإصلاح الخطير الذي أحدثه فيها العالم الانجليزي الكبير « بيكون » في القرن السابع عشر فخرجت المعارف الإنسانية بهذه الوسيلة من حيز الظنيات إلى حيز اليقينيات فما أحدثه هذا العبقري الانجليزي من التمحيص في مجال المعارف المادية سبقه الإسلام إليه بأكثر من ألف سنة في عالم المعتقدات الدينية . فليس على مسلم بموجب الأصل الإسلامي أن يتناول عقيدة دون أن يعقلها ويدلل عليها حتى ساغ لأصحاب الأصول من المسلمين أن يقرروا أن إيمان المقلد لا يقبل منه ، لأن العقل في ذاته وإن كان خاصة طبيعية من صفاته التمييز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ولكنه في حاجة إلى نور يستمد من الخارج تظهر له به الأمور على ما هي عليه في الواقع . فخاصة العقل بحكم وظيفتها في التفرقة بين الأمور الفاضلة وغير الفاضلة والشئون النافعة والضارة في حاجة ماسة إلى المقومات الذاتية والمقومات الخارجية . فالمقومات الذاتية المعارف على جميع ضروبها ، والتجارب على اختلاف مواضيعها لأن العقل الخاوي من العلم والمجرد من التجارب يتعقل الأشياء تعقلا ساذجاً ، ويميز بين الحسن والقبيح تمييزا سطحيا ولكن أيستطيع أن يفرق بين حق وباطل أو بين حسن وقبيح تفرقة صحيحة ؟

إذا كان ذلك ممكنا لما اختلف الناس ، في عقائدهم وشرائعهم ومبادئهم على النحو الذي هم عليه اليوم . لذلك عنى الإسلام بأمر المقومات العقلية بنوعيها كل العناية بقدر ما عنى بنصب العقل حكما بين ما هو حق وباطل ، وحسن وقبيح ، وخير وشر .

فأما من ناحية المقومات الذاتية فقد حث على وجوب طلب العلم فقال تعالى : « وقل رب زدني علماً » ، وعلل هذه العناية منه بوجوب طلب العلم بأن العلم يوجد لأهله مزايا يتجرد منها المحرومون منه ، وهو يريد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أن يكون للآخذين به جميع المزايا التي يمكن أن يتمتع البشر بها فقال تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وصرح بأن بين المؤمن الجاهل والمؤمن العالم درجات فقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » قال البيضاوى « يرفع الله الذين آمنوا منكم » بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا ، وإيوائهم فى غرف الجنان فى الآخرة « والذين أوتوا العلم درجات ، ويرفع العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل . فإن العلم مع علو درجته يقتضى العمل المقرون به مزيد رفعة . ولذلك يقتدى بالعالم فى أفعاله ولا يقتدى بغيره . وفى الحديث : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

نقول : وقد قدر ابن عباس رضى الله عنه هذه الدراجات بسبعين درجة .

وقد حض الإسلام ذويه أيضا على إجالة الفكر فى الأمور وتناولها بالبحث والتقدير وحثهم على النظر فى الكون والكائنات وتنور أسرارها واستكناه مساتيرها ، واعتبر ذلك أفضل من العبادة بالجوارح فقال تعالى : « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » : وقال « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » وكرر سبحانه ذلك فى عشرات الآيات .

وورد فى الأحاديث النبوية تحضيض شديد على التفكير ، حتى جعله النبى صلى الله عليه وسلم خير ضروب العبادة فقال : « فكر ساعة خير من عبادة سنة » .

وقد شفع الإسلام هذا التحضيض على التفكير ببيان النواحى التى يجب توجيه الفكر إليها وهى :

١ — الوجود فى جملته ، فقال تعالى « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

« أفلم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » .

٢ — الكائنات الأرضية من جمادية ونباتية وحيوانية ، والتأمل فى صورها وأشكالها وطبائعها وأسرار وجودها . قال الله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا . (أى رطبا) وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . (أى ذات أشجار غليظة) وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » . وقال : « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . وقال « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت » الخ .

٣ — الإنسان ، تكونه فى الرحم وميلاده وأطواره وأحواله ونفسه ، قال تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقال : « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » وقال : فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » وقال : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .

فهذا ومئات أمثاله فى الكتاب الكريم يوقظ فى النفس غريزة النظر فيما بين يديها وما خلفها ، ويثير فيها رغبة ملحة للكشف المستتر واستجلاء غوامض الخليقة ، فنجد فيها مادة العقل غذاء لها يبلغها غاية ما تصل إليه من قوة التحليل والتركيب ، للمعقولات فلا تؤخذ بظاهر خلاب ، ولا عرض فاتن فإذا أرادت الحكم على الأشياء ردها عن الانخداع بالظواهر ما تمرست به من النفوذ إلى السرائر ، والغوص لاستخراج دفائن الحقائق .

ولم يكتف الإسلام بهذا من مقومات العقل فدفع بالآخذين به إلى مخالطة الأمم ، ومعاملة الشعوب ، وحفزهم إلى التجوال فى الأرض ، والضرب فى أكنافها ، ودراسة أحوال الجماعات الإنسانية ، والنظر فى شئونها ، من قوة وضعف ، وعزة وذلة ، وارتقاء وجمود ، والبحث عن أسباب ذلك وعلله ، من أمورها الراهنة ، وتاريخها القديم ، وتقدير ذلك بالمعايير العلمية ، وقياسها بالمقاييس الحكمية ، قال تعالى « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . وقال : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . وصرح جل وعز بأن ثمرة هذه السياحات إزالة ما على القلوب من ظلمات الجهالة ، وما على العقول من غاشيات الغباوة ، وما علق بالنفس من ران العماية ، قال تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور».

لم يدع الإسلام هدفاً من أهداف النظر ، ولا موضعاً من مواضع الاستبصار ، ولا عاملا مما يوقظ غريزة التأمل ، وينبه خاصة التفهم إلا دعا إليها واستنهض الهمم للتنافس فيها ، كل ذلك منه ليطوف بالعقل فى جميع أدوار التربية والنحو فيبلغه النضوج الذى يصبح معه قادراً على الحكم على ما هو حق وما هو باطل ، وما هو حسن وما هو قبيح ، حكما يكون هو الصواب كله أو قريباً منه .

والذى يتتبع وصايا الإسلام وتعاليمه يجده لم يهمل وجها من وجوه تربية الإنسان هذه التربية الأدبية إلا نبه ذويه إليه ، وحضهم عليه ، حتى ما يتوهم بعض الناس أنه لا علاقة له بها ، كالرياضة البدنية ، من المصارعة ، والمضاربة بالسيف ، والسباحة ، والمسابقة على الخيل مما قد يدفع بعض خصوم الإسلام أن يقولوا : ما لهذه الأعاجيب والدين الذى يستدعى الوقار وحسن السمت والخشوع ؟ ويجيب عنهم أن هذه الرياضات التى يسمونها أعاجيب لا تنافى الوقار والسمت الحسن والخشوع ولا أرقى مظاهر التقوى ، ولكنها تعين عليها بفهم وتعقل وحنين صادق بما توجده للجسم من الصحة الكاملة ، وما تقتضيه من مراس عقلى وتدبير فكرى ، وخروج عن عوامل التحجر الجسدى والأدبى التى تعترى الذين يكرهون الحركات الجسمية ، ويأفنون تمضية حياتهم بين جدران دورهم ومعابدهم . فإذا كان القصد من الدين تكميل الإنسان حساً ومعنى ، فهذه سبيل التكميل وهذه أساليبه ، هدى إليها البشر من طريق العمل ، ونزل بها الوحى الإلهى قبل عصر العلم على خاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم .

يقول خصوم الإسلام : إن الإسلام دين مادى يحض على العمل ، وعلى الضرب فى الأرض ، وعلى كسب المال ، وعلى الفتوح والتوسع فى الأرض ، وغاب عنهم أن الإسلام دين أوحى ليعتقد به ، لا ليعتقد ويلتى به فى زاوية باعتبار أنه لا يمكن القيام عليه .

ومارق الإسلام من كل ذلك إلا لتحتك الناحية الأدبية من الإنسان بكل ما يمكن أن يصقلها ، ويستصفى جوهرها ، بتورطها فى مضايق الحياة ومآزمها ، وتمرسها بأحداثها وجوائحها ، فإذا اجتازت كل هذه القواطع خرجت منها مستكملة جميع الشرائط الصحية حاصلة على جميع خصائصها الطبيعية ناضجة نضوجا يؤهلها لبلوغ جميع غاياتها الروحية .

عباس ط

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مايقال عن الإسلام

دراسة للإسلام المعاصر على الساحل الغربي للقارة الإفريقية

للأستاذ عباس محمود العقاد

A STUDY IN CONTEMPORARY ISLAM
ON THE WEST AFRICAN COAST

دراسة للإسلام المعاصر على الساحل الغربي القارة الإفريقية ، موضوع كتاب ألفه الأستاذ همفرى فيشر ، وخص الكلام فيه بالطائفة الأحمدية ، التى يظهر من ثنايا فصول الكتاب أنه على خبرة وافرة بشئونها حيث يقيم المنتسبون إلى هذه الطائفة فى الهند وفى الديار الإفريقية .

وقد بدأ الكتاب بفصل عن خصائص الإسلام وخصائص الوثنية التى تساكنه على رقعة واحدة من القارة الإفريقية ، وأدار مباحثه على أربعة أبواب : الباب الأول منها يشرح فيه العقائد الإسلامية عامة ويتناول بالشرح نواحيها الخاصة حيث تتصل بالشعوب الوثنية مؤثرة فيها أو متأثرة بها ، على نحو يخالف بعض المخالفة مراسم العبادة وأشكالها فى الأقطار الأخرى .

والباب الثانى يجمل تاريخ الطائفة الأحمدية منذ نشأتها بالهند فى أواخر القرن التاسع عشر ، ويتتبع أدوار نشأتها إلى أن قام بالأمر فى الطائفة « محمود أحمد » ابن صاحب الدعوة غلام أحمد القادياني ، فانقسمت الطائفة قسمين أحدهما المشهور باسم جماعة لاهور وهو يقترب شيئاً فشيئاً من عقائد أهل السنة ويفارق شيئاً فشيئاً بعض الدعوات التى خالفت عقائد أهل السنة عند نشأة الطائفة ، والقسم الآخر هو الذى تولى الدعوة بين الوثنيين من أهل إفريقية ، ورسم لتلك الدعوة خطة للتودد إلى القبائل الوثنية ، وسماها بخطة الجهاد السلمى ، محاولا بها أن يجتنب كل غرابة ظاهرة تنفر الوثنيين وتوقع فى نفوسهم أن الدين الجديد يعاديهم وينفصل عنهم كما ينفصلون عنه ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بغير أمل فى التفاهم والتقارب بين الطرفين وذلك فى حدود المحافظة على جوهر العقيدة الإسلامية والترخص بعض الشيء فى قشور المظاهر وأشكالها .

والبابان الثالث والرابع يشتملان على خلاصة تاريخية للأعمال التى قام بها المبشرون بدعوة الطائفة ثم قام بها ولاة الأمر لتوطيد الحكم الإسلامى وتنظيم الحياة الاجتماعية بين القبائل التى تحولت عن الوثنية .

والمفهوم من جملة هذه الأبواب أن الدعوة نجحت فى توحيد الشعائر الاجتماعية العامة ، وهى صلوات الجماعة والأعياد وصيام شهر رمضان وأداء فريضة الحج بالتعاون بين القادرين عليها والعاجزين عنها .

فالصلوات الجامعة يشترك فى أدائها جمهرة المسلمين من الدعاة أو المتحولين عن العبادات الوثنية ، وتزدحم المساجد الكبرى بالمصلين أحيانا حتى تمتد صفوفهم إلى الطرقات والأسواق حول تلك المساجد الكبرى .

وصلوات الأعياد - خاصة - يذكر لها أثر بليغ فى تهذيب الحكام وإصلاح أداة الحكومة ؛ لأنها المناسبة التى يقف فيها كل أمام الله وأمام الشعب ، ويجدد عهوده على البر والتقوى وتوثيق عرى المودة بين الرعاة والرعايا .

ويقول المؤلف - نقلا عن مصادر التبشير التابعة للكنيسة الكاثوليكية - إن المبشرين الذين يقدمون إلى البلاد وهم لا يعرفون جانب القوة فى الدعوة الإسلامية هناك كانوا يسألون زملاءهم : ما هو الجانب الحسن فى هذه الدعوة ؟ فيقال لهم : إنه الإيمان بالتوحيد ، وإقامة الصلوات العامة ، ورعاية الصيام فى موعد من السنة .

ويذكر المؤلف أن رعاية شهر الصيام قد تغلغلت فى تقاليد القوم حتى أصبح الوثنيون يتجنبون القتال فيما بينهم خلال شهر رمضان ويعتبرونه شهراً حراما لا يجوز فيه حمل السلاح ضد الأعداء ، ولو لإدراك الثأر ورد العدوان القديم بمثله .

وفى المسائل التى تيسر التلاقى عليها بين الوثنيين والدعاة إلى الدين الجديد مسألة التراتيل الدينية فى الأذكار العامة فإن الإفريقى معروف بمحبته للغناء وارتياحه إلى المحافل التى يترنم فيها بالألحان والأهازيج ، فاستعان الدعاة بعادات القوم المطبوعة فى عباداتهم الموروثة على اجتذابهم إلى محافل الذكر التى يرتلون فيها الأناشيد ويذكرون فيها اسم الله وصلوات الحمد والدعاء بديلا من عبارات السحر والطلاسم التى حفظوها من كهانهم عبدة الأصنام والأرواح والشياطين .

وترخص الدعاة مع أبناء القبائل فى عادات التضحية والتقدم بالقرابين من الحيوان والثمار إلى معابد الوثنية ، ولكنهم يجتهدون

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى تحويلها من شعائر الوثنية إلى شعائر التقرب بها إلى الله للإحسان والصدقة أو للاشتراك بالطعام فى الولائم العامة .

وتعد رحلة الحج من أقدس المراسم وأحبها إلى المسلمين الإفريقيين ، ينتظرون موعدها ويرحبون بالعائدين من الديار المقدسة بين أهل القرية من أقارب الحجاج أو جهرة الغرباء عنهم ، ويحسبونها فريضة اجتماعية يتعاون المؤمنون على أدائها ، فيصطحب القادرون من يستطيعون الإنفاق عليهم لزيارة بيت الله الحرام وأداء الفريضة فى موعدها ، ويتبرع الأغنياء الذين يحال بينهم وبين السفر لمن يريد السفر من الفقراء ولا يقدر عليه ، ويعتقدون أن ثواب المسافر كثواب المقيم الذى أخلص النية للحج ولم يقدر عليه لمرض أو مانع لا اختيار له فيه

* * *

ومما حرص عليه الدعاة المحدثون أن يجتهدوا غاية اجتهادهم فى تبديد كل ما علق بأذهان الوثنيين من الوهم عن معنى الجهاد فى الإسلام وأن المسلم لا يستبيح قتل الوثنى بالسيف فى كل حال ، ولا يوجب عداوة الوثنى لغير سبب ما لم يقابله بالعداء ويحظر عليه الدعوة إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإنما كان ابتداء الجهاد بالسيف فى تلك الأقطار بعد عودة أبى بكر بن عمر من المغرب للتوفيق بين أمراء الموحدين وتوحيد كلمتهم فى صد العدوان من أمراء الوثنيين الذين أغلقوا أبواب بلادهم فى وجه الدعوة الإسلامية ، ولولا أن الأمراء الوثنيين حملوا السيف لصد الإسلام عن سبيله لما تصدى لهم أمراء المسلمين فى ميادين القتال .

ولكن أصحاب السلطان فى البلاد ألقوا فى روع أتباعهم أن الدعوة إلى الإسلام لا تعنى شيئا غير القتال واستباحة دماء المخالفين من المحاربين والمسالمين ، وجاء المبشرون بعد القرن السابع عشر فجعلوا مهمهم كله أن يؤكدوا هذا الوهم وأن يبالغوا فى إظهار الفرق بين دعوة التبشير ودعوة «الجهاد» كما فهموه وتوارثوا فهمه منذ سنين.

فلما ابتدأ « المجاهدون » المحدثون دعوتهم أعلنوا أنهم خرجوا للجهاد « السلمى » ولم يحملوا السيف ولا هم يعلنون بينهم وبين الوثنيين موضعا للخلاف يصعب التفاهم عليه بالمودة والإقناع ، وترخصوا فى قبول العادات والتقاليد التى يألفها الوطنيون ولا يسهل تحويلهم عنها دفعة واحدة ، ولا هى مما يبعدهم عن الإسلام فى جوهره أو يتعذر على العادة الجديدة أن تحل فيه محل العادة الموروثة ، لأنها قد تصطبغ بصبغة الإسلام مع بعض

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

التعديل ، كما حدث فى مسألة الغرابين ومسألة الأذكار والتراتيل .

* * *

ويروى المؤلف عن الباحث الحديث فى تاريخ الإسلام ، ترمنجهام ، أهم العقائد التى يشترك فيها جميع المتدينين فى إفريقية الغربية من المسلمين أو الوثنيين الذين لم يصلوا إلى الإسلام ولكنهم ماضون فى طريقهم إليه ، ومنها الإيمان بالحساب واليوم الآخر ، والإيمان بعالم الغيب فى حياة أخرى غير الحياة الدنيا ، وربما فصلت عقيدة الحياة الأخرى عروة العلاقة فى الأسرة التى جعلت الآباء والأسلاف أربابا يعبدها الوثنى وأرواحا يتزلف إليها وينتظر المعونة منها ، فإن عقيدة الحياة الأخرى قد تقيم القنطرة التى تيسر للأحياء العبور إلى الأموات وتيسر للأموات العبور إلى الأحياء ، ولكنها لا توحد بين السماء والجحيم ولا تسمح بانتظار بعث الميت واللقاء بينه وبين ذريته قبل يوم النشور ، ولكن العقبة قد يتأتى تذليلها من طريقين : أحدهما أن الأسلاف لم يكونوا فى جميع الأحوال عوناً صالحا للأخلاف ولا كانوا على أهبة الإجابة والتلبية لدعاء الأبناء والأحفاد ، فلا أسف على إقصاء الكثيرين منهم عن المحاريب ، والطريق الآخر أن بعض الوثنيين سبق إلى خواطرهم أن تحويل الأب عن الوثنية جائز بعد انتهاء أجله ، فقد كان أحد الآباء ينهى ابنه عن دخول الإسلام وظل ينهاه حتى فارق الحياة ، فلما قضى نحبه دان الفتى بالإسلام وظهر له أبوه فى المنام فلم يسمع منه زجراً ولا تأنيباً على مخالفة وصاياه ، بل علم منه أنه هو نفسه قد اهتدى إلى الإسلام » .

* * *

وهذه السلوى التى لجأ إليها ضمير الفتى المسلم للتوفيق بين حقوق الأسلاف فى عقيدته الأولى وبين عقيدة الإسلام فى الروح بعد الموت مثل حى من أمثلة البقايا التى تتخلف فى ضمائر الوثنى المهتدى إلى الإسلام من شوائب ديانته السلفية ، ولكنها مرحلة من مراحل الطريق لعلها قريبة الزوال ، ولعلها أهون من رفضه وارتداده على أبواب الحظيرة الإسلامية . على أننا نتساءل ونتفاءل بعد الإلمام بعاقبة الجهود فى ذلك الجهاد السلمى : ألا يجوز أن تصبح إفريقية الغربية ميدانا لتوحيد الكلمة وتقريب المقاصد بين الدعاة إلى الإسلام على هدى الكتاب والسنة ؟ غاية ما يرجى أن تظل تلك البلاد ميدانا للتقريب بين طائفة داعية وبين سائر الطوائف من المقبلين على الإسلام .

عباس محمود العقاد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى الحرم

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

أحقا أنا ههنا فى الحرم
وبين يدى تفيض النعم ؟
ضياء من الله يسمو بروحى
إلى عالم لم تزره قدم
ويسكب فيها رحيق الصفاء
فتنسى حياة الأسى والألم
وسحر جرى فى دمى سره
كأن الربيع بقلبى ابتسم
وصوت دعانى فوافيته
وروحى غناء ، وقلبى نغم

* * *

دخلت من الباب باب السلام
فكبرت لله بارى النسم
وهللت للبيت لما دنوت
وطالعنى ستره من أمم
ورفرف قلبى على ستره
وناجى ، وقبل ، ثم استلم
وروحت أطوف بين الزحام
وروحى أتطوّف فى المزدحم
وكم ذا دعوت بقلب ينوح
وروح تبوح بدمع الندم
أتيتك يا رب أبغى رضاك
فهب لى الرضا يا جليل النعم
فإن حياتى بغير رضاك
هباء ، وإن وجودى عدم

* * *

تباركت يارب ماذا أرى ؟
أهذا الحمام حمام الحرم ؟
يطير هنا آمنا شاديا
بصوت صفا لحنه وانسجم
كطفل رأى أمه أقبلت
فخف إلى صدرها والتزم
فإن سار فى جنبات الحمى
تآلف فى سيره وانتظم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويارب أنت الذى صنته
وأسكنته البيت منذ القـــدم
وأمنته فى حماك العزيز
ومن أنت أمنته لم يُضم
ولو فهم الناس ما يبصرون
لما ضل عالمهم واختصم
يعيش الحمام حياة السلام
وبالحرب تشقى وتفنى الأمم

* * *

وقيل لنا : هـــذه زمزم
فقلت بقلبى وروحى : نعم
وإلا فمن أين هـــذا العبير
يفوح ؟ ومن أين طيب النسم ؟
وألقيت نفسى على مائها
فيا للعـــذوبة ! يا للكرم !
وما كان بى نهم قبلها
ولكن هنا يستحب النهم
ولما ســـميت فوفيت ما
تريد العهود ، وتبغى الذمم
خرجت من الباب باب الوداع
بأجمل حلم ، وإن لم أنم
أهنئ نفسى بما نلته
وأحـــمد ربى على ما قسم
وسرت بمكة والذكريات
يطالعنى وجهها المبتسم
أحدث نفسى ألذ الحديث
وأسكب فيها أرق الكلم
هنا خطرت قدم المصطفى
وقبل هذا التراب القدم
فقال إذن لا أضم التراب
وألثمه اليوم فيمن ألثم ؟
هنا أقبل النور يمحو الظلام
كما أقبل البر يمحو السقم

* * *

هنا بدأ الدين دين الشرا
ئع ، دين المبادئ ، دين القيم
فكان سلاما لمن سالموا
وكان حساما على من ظلم
هنا جاء ركب النبى الكريم
يفوت السهول ، ويطوى الأكم
تسير الفتوة من حوله
وتمشى النبوة تحت العلم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

يروم بمكة ردع العصاة
ومحق الضلال ، وسحق الصنم

فلما التقى بجموع الطغاة
تخاذل طغيانهم وانهزم

وجاءوا يجرون من خزيهم
قيود الهوان ، وذل الندم

فقال لهم : ما تظنونني
سأفعل بالمذنب المجرم ؟

فقالوا : وهل أنت إلا أخ
يصون الإخاء ، ويرعى الرحم ؟

فقال : اذهبوا طلقاء النفوس
فلست من الأهل بالمنتقم

عفا ، قادراً ، عن إساءاتهم
وما العفو إلا أرق الشيم

وعفو القدير يلين الحديد
ويعنو له كل صخر أصم

وكم ذكريات شدتها الحياة
بأرخم لحن ، وأحلى نغم

وسطرها المجد في لوحه
بأزكى مداد ، وأندى قلم

* * *

فيارب هيء لنا ما نريد
لنحيا حياة تثير الهمم

نحلق فوق قباب الحياة
كما حلق النسر فوق القمم

وقو عزائمنا في النضال
إذا ما النضال طغى واحتدم

فلا ننثني حين نرقى الصعاب
ولا ننحني حين نلقى الألم

وألف على الحق شمل القلوب
فبالشمل نقوى إذا ما التأم

* * *

ويارب عوداً إلى مكة
فقد لاذ قلبي بها واعتصم

لأنهل من نفحات الصفاء
فأهتف من شوقي بالنغم :

أحقا أنا ما هنا في الحرم
وبين يدي تفيض النعم ؟

ابراهيم محمد نجا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الكتب

الأعلام الشرقية

تأليف الأستاذ زكي مجاهد

تقديم : الأستاذ حسن جاد

العناية بالأعلام فى ميادين الفكر والأدب والوطنية عناية بتاريخ أمتنا القومى ، واستظهار لأمجادها ، وتوطيد لدعائم شخصيتها وعناصر مقوماتها . فالقومية الوطنية تاريخ يتجدد مع الزمن ، وماض يتصل بالحاضر ، وأفكار الآباء وعقولهم تسرى فى دماء الأبناء وأعصابهم .

ولن تستكمل أمة نهضتها ووثبتها ما لم ترجع إلى تاريخها وتتعرف إلى ماضيها . وكم حاول الاستعمار أن يبتر تاريخ أمتنا ، وأن يفصلنا عن ماضينا ، وأن يقضى على أعز مقومات صبغتنا الشرقية ، وشخصيتنا القومية ، بصرفنا عن دراسة تاريخنا ، والتهوين من شأن آثارنا اللغوية والأدبية والفكرية ، لولا يقظة المخلصين من المفكرين والمؤرخين الذين لم يفتنهم بريق هذا الغزو الخطير ، ولم يستطع ذلك الستار الكثيف الذى حاول الاستعمار أن يسدله على أمجادنا القومية والأدبية أن يحجبهم عن ماضيهم القريب أو البعيد . فرأينا معاجمهم تشغل مكاناً هاماً فى المكتبة العربية ، وتسعف الدارس والمحقق فى المجالات الأدبية والتاريخية إلى أن قيض الله لأمتنا العربية ، أن تخرج من المحنة ، وأن تثب وثبتها الكبرى نحو العزة والقومية العربية ، فتزداد الحاجة إلى هذه المعاجم ، وتصبح العناية بها ركنا من أركان البناء الجديد .

ومنذ الزمن القديم ومعاجم الأعلام تواكب الأيام وتصاحب القرون ، حتى القرن الثالث عشر ؛ فقد رأينا فى القرون الأخيرة : (الدرر الكامنة للمائة الثامنة) لابن حجر ؛ (الضوء اللامع للقرن التاسع) للسخاوى ؛ (الكواكب السائرة للمائة العاشرة) للنجم الغزى ؛ (خلاصة الأثر للقرن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الحادى عشر) للحبى ، (سلك الدرر للقرن الثانى عشر) للمرادى ؛ (حلية البشر فى القرن الثالث عشر) للبيطار .

وبقى فى المكتبة العربية فراغ للقرن الرابع عشر يتطلع إلى من يملؤه ، حتى لا يطوى النسيان أعلامه فى مجاهل الزمن ، ويغرقهم فى لجج الأحداث المتلاطمة . وهذا هو ما نهض به الأستاذ زكى محمد مجاهد فى معجمه الكبير (الأعلام الشرقية فى المائة الرابعة عشرة الهجرية) . فوصل به بين الماضى والحاضر ، وأكمل به سلسلة السابقين ، وسد به هذا الفراغ الشاغر لهذا القرن فى مكتبتنا العربية .

والعجيب فى أمر هذا المؤلف أنه وراق ، ولكنه لم يتخذ الوراقة سببا للتجارة والاستغلال المادى ، وإنما جعلها وسيلة للبحث والتأليف العلمى ، على نحو ما صنع ابن النديم صاحب الفهرس ؛ وياقوت صاحب معجم الأدباء ، والكتبى صاحب فوات الوفيات ، وغيرهم .

فهناك فى حانوته الصغير المعمور بين منعطفات خان الخليلى المتشابهة المتشابكة ، يعيش بين كتل من الكتب والصحف والمجلات القديمة والحديثة من سائر الأقطار بالوراقة على تتبعها وجمعها من هنا وهناك ، حتى أصبح هذا الحانوت الضيق الصغير المعمور مرجعاً لكل من يروم دراسة أو تحقيقاً من الشرقيين والمستشرقين فى أى موضوع من الموضوعات العلمية أو الأدبية أو التاريخية .

لقد تتبع المؤلف جميع الأعلام فى سائر الأقطار الشرقية بمصر والشام والعراق والحجاز ونجد وتركيا والباكستان والمهجر الأمريكى وغيرها ، وقسم معجمه إلى طبقات من الملوك والأمراء والوزراء والسفراء ، والزعماء الوطنيين ، والمصلحين الاجتماعيين ، والعلماء المبرزين ، والفلاسفة المفكرين ، والأدباء ، والشعراء ، والمؤرخين ، والرحالة ، والمتصوفين ، والصحفيين ، وغير ذلك من الأعلام فى كل ميدان .

واليوم يصدر الجزء الرابع من هذه السلسلة ، ولن يكون آخر الأجزاء ، وهو خاص بالكتاب والشعراء والرحالة والمؤرخين ، ويحتوى على (٣٣٥) ترجمة وصل بها المؤلف إلى الترجمة رقم (١١٠٨) من السلسلة .

وميزة المؤلف أنه يجلو لنا حياة المترجم له فى صورة حية واضحة المعالم ، بارزة الشخصية ، متميزة الجوانب ، ظاهرة المزايا ، ولا يكتفى برسم هذه الخطوط العريضة الشخصية وعرضها فى أسلوب رائع أنيق يجعلها تعيش بيننا ، بل يقفنا على مزاياها مستشهداً بآثارها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأدبية والفكرية فى اختيار موفق ؛ ثم لا يقنع بذلك حتى يقبع الترجمة بذكر المصادر الكثيرة المستوعبة لها ، فهو حريص على أن يحقق لمعجمه هذه المزية الجديرة بالتقدير ، والتى تميزه عن المعاجم الأخرى ؛ وهو مع هذا لا يستأثر بما بذله من البحث والتنقيب والجهد والمال فى تتبع هذه المصادر والبحث عنها والحصول عليها ، بل يقدمها إلى كل دارس ومحقق ، فيعينه على تحقيق ما يروم ، ويوفر عليه عناء البحث والسؤال .

وليس يفوتنا بعد هذا أن ننوه بفضل المؤلف فى تعريفنا بكثير من الأعلام المغمورين الذين نفض عنهم تراب النسيان ، حتى عرفهم من لم يسمع بهم ، ولولاه لظلوا مطمورين فى متاهات الزمن ومجاهل التاريخ ، فقد استوعب أعلام هذا القرن من المشاهير والمغامير ؛ وكما ترجم لشوقى وحافظ ومحرم والزهاوى وطاغور والرافعى وأرسلان والكاظمى والكواكبى والمرصفى والبابلى والمنفلوطى والمراوى وجبران والحمشرى وغيرهم من مئات الأعلام المعروفة ؛ ترجم كذلك للشاعر ناجى التركى والشاعر نذار الإسلام الباكستانى الذى يقول : « إن فى نفسك جميع الأديان وجميع الأنبياء ، ففى قلبك محراب فسيح لجميع الآلهة ، ليس من معبد أعظم من قلب الإنسان » . وللمؤرخين المجهولين من أمثال (عبد الفتاح عباده) ، (ميخائيل شاروبيم) . والعالم الشاعر (أحمد أبو على) أستاذ حافظ إبراهيم ، الذى أورد من شعره الرقيق وصفا لرقصة كانت تعرف (باسم إلبا) :

رقص رقصة إلبـــا
حتى فضحن الألبا
بنات روما اللواتى
يلعبن بالناس لعبا
هن الكواكب أمست
لها المراسح قطبا
فكم تمايلن دلا
واختلن تيها وعجبا
وكم تفرقن بعدا
وكم تجمعن قربا
مثل العصافير طارت
وغبت الماء غبا

كما ترجم لعثمان زناتى الذى يقول :

أرقت وأصحابى خليون نوم
وما أنا ذو ثار ولا أنا مغرم
ولكن هما بين جنبى هاجه
على ذوو القربى عفا الله عنهمو
فإن يك حلمى مد أعناق جهلهم
فلا زلت فيهم يجهلون وأحلم
وما أنا ممن يغلب الجهل حلمه
وينزو على الأعراض أو يتجهم

ومن ترجم لهم شاعر ضابط تسرى فيه روح البارودى هو (محمد توفيق على) الذى يقول :

يراعى له حد وسيفى له حـــد
فلا بات إلا تحت أقدامى المجد
ملأت يدى من مهجة الضيم فى الوغى
وأثبت رجلى حيث لا تثبت الأسد

ولم يغفل شاعر نجد (محمد بن عثيمين) الذى يشبه البارودى فى مصر من حيث الصبغة التقليدية والمذهب الكلاسيكى ويقول المؤلف عنه : « ويعتبر فى نجد كالبارودى فى مصر حيث أعاد الشعر العربى هناك قوته وجزالته ، ورصانته وفحولته ، بعد الضعف الذى ألم به فى عصور الانحطاط الأدبى ، ومن شعره :

وفى اضطراب الفتى نجح لبغيته
وللقادر إسعاد وخـــذلان
فاربأ بنفسك عن دار تذل بها
لو أن حصباءها در ومرجان

كما يقول :

إذا صحب المرء الجديدين أحدثا
له عبرا تشجيه مرأى ومسمعا
فلاتك ولاج البيوت مشاكيا
بنيها ولو تلقى سماما مقنعا
فأكثر من تلقى من الناس مثله
عليك وإن تعثر يمر لك لا لها

وعلى هذا النحو يمضى المؤلف فى معجمه مستظهرا آثار الأعلام ، متحريا فى استشهاده مالم ينشر أو يشتهر ، كما صنع فى استشهاده بشعر شوقى ، حيث اختار له مالم ينشر فى دواوينه ، كقصيدته المجهولة فى ذكر المولد النبوى :

نبى البـــر والتقوى
منار الحق معلمه
له فى الأصل أكرمهم
عريق الأصل أكرمه
أبوة سؤدد أخذت
بقرن الشمس تزحمه
ذبيحيون كلهمو
أمير البيت قيمه
فنعم الغمد آمنة
ونعم السيف لمذمه
سرى فى طهر هيكلها
كسرى المسك يفصمه
بقيا فى غلالتها
تعالى الله مؤتمـــه
تزف الآى محمله
إلى الدنيا وتقدمه
ويمسى نور أحمد فى
ظلام الجهل يهزمه

وكنت أود لو عنى المؤلف بضبط الأعلام والشواهد الأدبية بالشكل وأرجو أن يتدارك ذلك فى الطبعات القادمة إن شاء الله ، فإن هذا الضبط ضرورة تتحتم الفائدة التى تستهدفها المعاجم ، والله الموفق ؟

حسن جاد حسن
مدرس بكلية الدراسات العربية - بجامعة الأزهر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

القاموس الإسلامي

تأليف الأستاذ أحمد عطية الله

عرض ونقد : الأستاذ محمد الدسوقي

---

١ — القاموس الإسلامى - كما وصفه واضعه الأستاذ أحمد عطية الله - موسوعة للتعريف بمصطلحات الفكر الإسلامى ، ومعالم الحضارة الإسلامية ، وتاريخ الدول الإسلامية وتراجم الأعلام ، مع التعريف بأشهر المؤلفات فى المكتبة العربية ، والإسلامية ، مرتبة ترتيباً أبجديا ، وموضحة بالخرائط ، والصور ، والرسوم ، وتقع فى ثلاثة مجلدات .

وقد صدر المجلد الأول من هذه الموسوعة ، ويقع فى ٦٦٨ صفحة ، ووصل إلى نهاية حرف الجيم .

٢ — وقد أشار واضع هذا القاموس فى مقدمته ، إلى أن الحاجة قد أصبحت ملحة إلى موسوعة مفهرسة عن الفكر الإسلامى ، والحضارة الإسلامية ؛ للتعريف بهذا التراث الإنسانى الخالد ، وأن بعض الأفراد ، والجماعات ، قد حاولوا سد هذه الثغرة فى المكتبة العربية ، ولكن أعمالهم لم تسلم من النقص ، كما أن الاعتبارات السياسية ، والاستعمارية التبشيرية ، كان لها أثر فيما قام به بعض المستشرقين من بحوث فى هذا المضمار ، لا سيما فى تقويم الأحداث التاريخية ، أو فى تفسير المصطلحات العقائدية الإسلامية .

٣ — والواقع أن المكتبة العربية فى حاجة إلى موسوعات علمية فى مختلف فروع المعرفة ، وأن التراث الإسلامى بوجه خاص فى أمس الحاجة إلى التعريف به ، ونفض غبار الزمان عنه ، وعرضه فى صورة جديدة تسهل الانتفاع به والرجوع إلى مصادره ، فقد أصبح هذا التراث تقريباً لا تعنى به إلا طائفة قليلة من المتخصصين والدارسين .

٤ — وهذا القاموس الذى وضعه الأستاذ عطية الله عمل علمى جديد فى بابه ، وقد بذل فيه جهوداً طيبة يثاب عليها ، وأضاف إلى مادته العلمية المتنوعة : الصور ، والرسوم الموضحة ، كما اهتم فيه بتراث وحضارات الدول الإسلامية فى أقصى المشرق ، وأقصى المغرب ؛ لأن تاريخ هذه الدول ، وتراثها العلمى يكاد يكون مجهولا لدى مسلمى الشرق الأوسط ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

غير أن هناك بعض المآخذ التي يجب أن تقال ؛ نظراً لأهمية هذا القاموس في موضوعه ، وحرصاً على أن يكون مثل هذا العمل خالياً من كل ما يشوبه ، أو يقلل من قيمته .

٥ ــ وأول ما يؤخذ على هذا القاموس ، أن المؤلف لم يشر إلى المصادر التي رجع إليها لأن مثل هذا القاموس ، ليس كالقاموس اللغوي ، يكتفي بالرجوع إليه في معرفة معنى اللفظ ، ودلالته اللغوية ، ولكنه يعطي القارئ فكرة موجزة عن موضوع ما ، ثم تكون المصادر في هذه الحالة لمن شاء أن يستوثق ، أو يستزيد ، فإغفالها لا مبرر له ، وما كان يجب أن يكون ، وإذا كانت بعض الموسوعات المتعلقة بالأعلام ، كالأعلام للزركلي ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ، قد نصت على بعض المراجع ، فإن أهمية المراجع هنا لا تقل عن أهميتها في موسوعات الأعلام ، إن لم تزد عليها .

٦ ــ كما يؤخذ عليه أيضاً أن المؤلف لم تكن لديه خطة منهجية مرسومة في الحديث عن الموضوعات التي يجب أن يتحدث عنها ، ويبدو ذلك من أنه يتحدث في مادة عن موضوع ما ثم يهمل في نفس المادة موضوعات لها أهميتها التاريخية ، أو العلمية . فمثلا ، يعرف بالكتب التي تحمل اسم الأعلام ، « كإعلام الناس بما وقع للبرامكة من بني العباس » و « أعلام النبوة » ، ثم لا يعرف بكتاب « إعلام الموقعين » عن رب العالمين ، لابن قيم الجوزية ، مع أنه كتاب قيم يمثل الفقه الإسلامي الحي المتطور حسب الزمان ، والمكان وكذلك يتحدث عن أسد بن الفرات ، وأسد بن عبد الله القسري ، ثم لا يذكر شيئاً عن أسد الدين شيركوه الملقب بالملك المنصور ، الذي كان من كبار القواد في جيش نور الدين محمود بن زنكي ، وكان أول من ولي مصر من الأيوبيين ، وزيرا عليها للفاطميين ونائبا عسكريا عن نور الدين ، كما أنه عرف بكتاب « بدائع الزهور في وقائع الدهور » الذي يعرف بتاريخ مصر لابن إياس ولكنه لا يعرف « بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع » للكاساني وهو من أمهات الكتب وأدقها في المذهب الحنفي ، ويقع في سبعة أجزاء ، وأيضا لا يعرف بكتاب « بداية المجتهد ، ونهاية المقتصد » للإمام القرطبي ابن رشد ، الشهير بابن رشد الحفيد ، وهو من أمهات الكتب في المذهب المالكي . ومثل هذا كثير ، والتتبع والإحصاء له مجال آخر .

٧ ــ وقد وقعت في هذا القاموس بعض الأخطاء العلمية ، ففي الصفحة السادسة تحدث

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المؤلف عن ابن إباض زعيم الفرقة الأباضية فذكر أنه عاش إبان القرن الأول ، وعاصر الدولة الأموية إلى خلافة عبد الملك بن مروان وأن المؤرخين قد اختلفوا حول مولده وحياته ، ولكن المرجح أنه توفى سنة ٨٦ هـ وبعد هذا مباشرة تحدث عن فرقة الأباضية فقال : هى فرقة تنسب إلى عبد الله بن إباض الذى قام بدعوته إبان خلافة مروان بن محمد آخر الخلفاء من بنى أمية وفى هذا تعارض واضح ، فكيف يكون ابن إباض قد رجحت وفاته سنة ٨٦ هـ ثم قام بدعوته إبان خلافة مروان بن محمد ، والمعلوم أن هذا تولى سنة ١٢٧ هـ ؟ !

وإذا كانت كتب الفرق والتاريخ ، قد تضاربت فى الحديث عن ابن إباض وفى مبدأ دعوته ، فكان الأولى أن يشار إلى تناقض الروايات فى إيجاز مع ترجيح ما يراه الكاتب صوابا ، أما أن يكون الكلام فى قاموس كهذا ، متناقضا فلا يجوز .

وفى صفحة ٦٤٧ ، ٦٤٨ تعريف بالفقيه البغدادى « أبو إسحق اسماعيل بن إسحق » جاء فيه ، أنه ولد سنة ٢٠٠ هـ بالبصرة ، ثم انتقل إلى بغداد ، وأخذ الفقه على معاصره الإمام مالك ، أما أن « أبو اسحق » قد ولد عام ٢٠٠ هـ فصحيح ، ولكن معاصرته ، وأخذه للفقه على الإمام مالك خطأ واضح ؛ لأن هذا الإمام توفى سنة ١٧٩ هـ قبل أن يولد أبو اسحق بأكثر من عشرين عاما ، وقد ذكر صاحب تاريخ بغداد من أخذ عنهم أبو إسحق ولم يشر إلى الإمام مالك طبعاً .

٨ — أما المادة الفقهية فى هذا القاموس فقد عرضت فى صورة مختصرة جدا ولا يتسنى للقارئ غير المتخصص أن يستفيد منها ، وبخاصة مصطلحات أصول الفقه كالاستصحاب والاستصلاح ولا اعتراض على الاختصار فى ذاته ، ما دام لا يخل بالمعنى ، وما دامت هناك المراجع التى يلجأ إليها للتفصيل والتوضيح ، ولكن المراجع مهملة ، والاختصار جاء — فى بعض الأحيان — على حساب المعنى ، ففى الحديث عن البينونة الصغرى يقول المؤلف : وفى هذه الحالة لا يملك الزوج أن يراجع مطلقته ، ولو كانت فى العدة ، وليس له أن يعيدها إلى عصمته إلا برضاها وإلا بعقد جديد ، ومهر جديد وهذا لا يعطى القارئ فكرة وافية عن البينونة الصغرى لأن المطلقة إما مدخول بها أو غير مدخول بها ، فإذا كانت غير مدخول بها فإن الطلاق يكون بائنا بينونة صغرى إذا كان بما دون الثلاث ولا عدة عليها ، وفى الحالة الثانية يصير الطلاق الرجعى بائنا بينونة صغرى إذا انقضت العدة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولم تراجع الزوجة ، فالقول بأن الزوج فى هذا الطلاق البائن لا يملك أن يراجع زوجته ولو كانت فى العدة غير دقيق ؛ لأن الزوجة البائنة لا تكون فى عدة ، فضلا عن قصور تلك العبارة فى التعريف بالبينونة الصغرى كما يجب أن يكون .

وعندما عرف الأهلية قال : المقصود بها فى الشرع والقانون صلاحيته الإنسان لتملك بعض الحقوق ، وكذلك صلاحيته للتصرف فيها ، وهذا تعريف ناقص للأهلية لأنها من الناحية الفقهية على نوعين : أهلية وجوب ، وأهلية أداء ، والأولى هى صلاحية المرء لأن تكون له حقوق وعليه واجبات ، والأخرى هى صلاحية المرء لأن تكون أقواله ، وأفعاله معتبرة شرعا [1] فلا يقصد فقط بالأهلية صلاحية الإنسان للتملك والتصرف ولكن يراد بها إلى جانب هذا صلاحيته للحقوق المشروعة عليه ، وأن تكون أقواله وأفعاله معتبرة شرعا ولا مجال أيضا للاستقصاء بل ضرب الأمثلة فحسب .

(١) انظر الفقه الإسلامى مدخل لدراسته ونظام المعاملات فيه للدكتور محمد يوسف موسى ص ٢١٩ وما بعدها .

٩ — وهذا القاموس يقوم على الترتيب الهجائى فى عرض موضوعاته غير أن المؤلف لم يأخذ بهذا الترتيب أحيانا ، عند ما تحدث عن كلمة « أبان » بين أنها اسم لأكثر من واحد ، وذكر أربعة يسمون بهذا الاسم ، وترجم لهم ولكنه لم يرتبهم هجائيا أو تاريخيا.

أما الأخطاء المطبعية ، فهى قليلة ولكن هناك خطأ يجب تصحيحه وهو يتعلق بوفاة الإمام الشافعى ، فقد ذكر عند الحديث عن كتاب الأم أن الشافعى توفى سنة ٢٠٤ ثم ذكر فى مكان آخر أنه توفى سنة ٢٠٤ وهذا هو الصحيح والأول خطأ .

١٠ — وبعد فهذا جزء مما عن لى بعد قراءة عجلى لهذا القاموس ، لم أقصد بها التقليل من شأنه ، وأهميته ولكن رغبة فى أن يكون مثل هذا العمل وافيا وخاليا مما يشوبه ، وليكون مرجعاً يوثق به ويعتمد عليه ، وليسد بجدارة فراغا فى المكتبة العربية ، وحتى لا تتكرر مثل هذه الأخطاء فى المجلدين التاليين إن شاء الله ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

محمد المرسى
المحرر بمجمع اللغة العربية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أنباء وآراء

السيد / حسين الشافعي يتحدث عن دور الأزهر في الدعوة الاشتراكية

افتتح السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية وعضو مجلس الرياسة الموسم الثقافي السادس للأزهر ومجمع البحوث الإسلامية في يوم الثلاثاء ١٧ من رجب سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٣ م فألقى محاضرة عن دور الأزهر في الدعوة والفكر الاشتراكي قال فيها : إن الأزهر قد فتح الطريق أمام كل القدرات والطاقات لكي تبحث عن دورها في الدعوة إلى الفكر الاشتراكي وبخاصة في هذه المرحلة التي تبني فيها الديموقراطية السليمة وقال : إننا في هذه المرحلة حينما نبدأ في قيام مجلس الأمة وفي استكمال التنظيمات الشعبية نؤكد أن الثورة عمل شعبي وأن الديموقراطية بهذا تصبح حقيقة وعملا بناء إيجابيا، وإننا حينما نطبق الديموقراطية إنما نستهدف دائما أن نعطي المثل الناجح ليس أمام المواطنين فحسب بل لكل الدول التي تتطلع للحرية وتريد أن تستهدي السبيل في مجال التطبيق الاشتراكي .

ثم قال : إن الاشتراكية تهدف إلى إقامة مجتمع الكفاية والعدل ، وهي إلى ذلك سلوك وخلق ودين . بخلاف الاشتراكية المادية البحت فإنها تعتمد على قوة الدولة . فإذا انهارت هذه القوة انهار النظام كله ـ أما اشتراكية الإسلام فإنها قائمة على تكوين العاطفة الإنسانية التي تحبب إلى الإنسان البذل والعمل والتضحية من أجل المجموع .

وقال : إننا لن نتمكن من الدعوة للفكر الاشتراكي إلا إذا علمنا أولا من أين تبدأ مسئوليتنا ونعرف ما هو المقصود الاشتراكي وما هو المقصود الديمقراطي ، وما هو المقصود بالوحدة ، فيجب أن يقوم بالدعوة المؤمن بها ... المؤمن بالفكرة ثم بالقيادة ثم في سبيل ذلك يكون على استعداد أن يجاهد دائما بالمال والنفس في سبيل الفكرة والعقيدة . ولذا كان على الأزهر أن يتبرى لكل التحديات وأن يعطي الفكر الاشتراكي في الجمهورية العربية المتحدة المثل الصالح في جميع المجالات .

ثم تكلم نائب الرئيس عن أخلاقيات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

التنظيم الإسلامى فى مجال الترابط والأخوة والحرية ... قال إن الحرية هى هدف وغاية وهى طريق ؛ ولذلك لا توجد دعوة إصلاحية على الإطلاق يكون هدفها الحرية إلا كتب لها البقاء .

جريدة ماليزية تشيد بتقدم الجمهورية العربية المتحدة فى مجال الثقافة الإسلامية :

نشرت جريدة الأخبار اليومية « الناطقة بلسان حكومة اتحاد الملايزيا بتاريخ ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٦٣ مقالا تناول فيه كاتبه ما تقوم به الجمهورية العربية المتحدة فى مجال الثقافة الإسلامية وقد لخصه بعد ترجمته الأستاذ عبد الوهاب على إبراهيم مبعوث الأزهر إلى الكلية الإسلامية باتحاد الملايزيا وبعث به إلى مجلة الأزهر وفيما يلى ملخص المقال :

تحت عنوان « دار القرآن للإذاعة والنشر » قال الكاتب : فى كل صباح عقب الصلاة تحمل إلينا أمواج الأثير آيات الذكر الحكيم بصوت الشيخ محمود خليل الحصرى القارئ المصرى فتخشع قلوبنا وتحلق أرواحنا فى أجواء روحية صافية .

إن القرآن الذى تحمله الينا أمواج الأثير كل صباح مسجل على أسطوانات تعرف بالمصحف المرتل ، وهذا المصحف أعدته الجمهورية العربية المتحدة ثم قامت بإهدائه إلى كثير من الدول الإسلامية ليكون رابطة روحية تربط بين المسلمين فى أنحاء العالم .

إن الأمة الإسلامية التى تحب الأمن والسلام تشعر بالسعادة وتقر بالشكر لما تقوم به الجمهورية العربية المتحدة من الأعمال العظيمة التى تتمثل فيما يبذله الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف وشئون الأزهر من جهود .

إن الأخبار الحديثة الواردة من القاهرة تشير إلى أن الجمهورية العربية المتحدة تعد نسخا وفيرة من المصحف المرتل لإهدائها إلى المسلمين فى كل مكان كما تشير هذه الأخبار إلى أن الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف وشئون الأزهر قد أقر مشروعا لإقامة مبنى كبير بميدان رمسيس فى وسط العاصمة يطلق عليه « دار القرآن » وسيضم هذا المبنى أقساما متعددة أهمها :

(ا) قسم للتسجيل مزود بالاستوديوهات والآلات الحديثة لتسجيل القرآن بأصوات كبار قارئى القرآن فى الجمهورية العربية المتحدة .

(ب) قسم للطبع مزود بأحدث آلات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الطباعة لطبع القرآن الكريم والكتب الإسلامية باللغات المختلفة .

(ج) قسم للترجمة والنشر لترجمة القرآن والكتب الدينية للغتين الانجليزية والفرنسية لتلبية طلبات المسلمين فى ربوع العالم .

(د) مكتبة كبيرة تضم آلاف الكتب وتجمع الكتب الإسلامية ، القديم منها والحديث وستصبح هذه المكتبة مرجعا يرجع إليه المسلمون فى أنحاء العالم ، وقد قدمت جمعية الشبان المسلمين إلى الدكتور وزير الأوقاف وشئون الأزهر عدة اقتراحات من بينها :

(ا) إنشاء قسم لفحص وتصحيح نسخ القرآن التى تطبع فى الجمهورية العربية المتحدة وخارجها لمواجهة ما تقوم به إسرائيل من تحريف القرآن الكريم وتوزيعه فى إفريقيا .

(ب) إنشاء قاعة تقام فيها الاحتفالات الدينية ومسابقات القرآن .

إننا ننظر إلى ما تقوم به وزارة الأوقاف وشئون الأزهر فى الجمهورية العربية المتحدة بالتقدير والإعجاب ، ونرجو أن تصبح دار القرآن مركز إشعاع للمسلمين فى كل مكان .

كما نرجو أن يثير ما تقوم به الجمهورية العربية اهتمام بلادنا فتعمل على تحقيق بعض المشروعات الإسلامية وخاصة إنشاء مكتبة كبيرة لحماية المواطنين من الكتب والمجلات التى تقدمها مكتبات السفارات الأجنبية فى بلادنا .

عبد الوهاب على إبراهيم
مبعوث الأزهر
إلى الكلية الإسلامية باتحاد الملايزيا

الرعاية الاجتماعية لطلبة معهد الإسكندرية

قدم الأستاذ حلمى محمد الشيمى رسالة عن مدى احتياجات قوى الشباب الأزهرى وأنواع الرعايات التى تقدم لهم . . وقد حصل بها على بكالوريس الخدمة الاجتماعية بعد مناقشة بمقر المعهد العالى للخدمة الاجتماعية أمام لجنة كونت من الأستاذ محمود فهمى عميد المعهد والدكتورة انتصار يونس أستاذة علم النفس بكلية الآداب والأستاذ عبد المنعم هاشم .

وقد وقع اختيار كاتبها على معهد الإسكندرية لأنه كما يرى ، صورة تمثل شباب الأزهر بمختلف طبقاته وشتى نواحيه وختمها بعدة اقتراحات تتعلق بالثقافة والخدمات والنشاط الفنى الرياضى والاجتماعى .

وهى رسالة جديرة باهتمام المسئولين والمشرفين على الأزهر ومعاهد التعليم فيه .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فتاوى مختارة ..

باب يقدمه:

ابراهيم محمد الأصيل

{ الإجابة لجنة الفتوى بالأزهر }

كيفية اعتناق الإسلام :

السؤال :

أنا مسيحي وأرغب فى اعتناق الإسلام وقد سبق أن أسلمت والدتى وإخوتى جميعهم وساعدهم على ذلك حصولهم على قدر من التعليم ، أما أنا فأنى لم أتعلم ، فما هى الطريقة التى أتبعها لأكون مسلما ، وذلك لأننى أشعر بأن الإسلام يسرى فى دمى ، وإيمانى به يزداد يوما بعد يوم حتى اقتنعت بأن الدين عند الله الإسلام . فالمرجو إرشادى إلى الطريقة التى بها أشهر إسلامى حتى لا أظل فى دين غير الإسلام ؟ .

هزت سوريان واصف
جندى بالقوات المسلحة

الجواب :

اعتناق الإسلام يكفى فيه شرعا أن يقول المرء : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » . وبهذا يكون قائلها مسلما ولو لم يسجل ذلك فى إشهاد رسمى ، وعليه بعد هـذا أن يقوم ببقية الأركان ليكون إسلامه كاملا ، وبقية الأركان هى : إقامة الصلاة المفروضة ، وأداء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحرام بمكة مرة فى العمر لمن كان قادراً .

أما إثبات الإسلام رسميا فيحصل فى مكاتب التوثيق وهى مكاتب الشهر المعروفة ، ومن لم يسجل إسلامه فى مكاتب التوثيق فهو مسلم فى حكم الله ما دام مقراً بالشهادتين ولم يحصل منه ما ينافى عقيدة التوحيد . والطريق بعد هذا لمعرفة التفاصيل التى يقتضيها الدين الإسلامى هو سؤال أهل العلم .

الدعاء فى الصلاة ، وهل يمنع الجنب منه ومن ذكر الله ؟

السؤال :

أنا أصلى الوقت فى ميعاده ولكن أحب دائما أن أدعو الله العلى القدير وأكثر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من دعائى فى الصلاة وبخاصة فى السجود والركوع وبعد التحيات الوسطى وتقريباً فى كل ركعة .

فهل هذا جائز أم باطل ؟ لأنى سمعت كثيراً أن الصلاة عبارة عن دعاء وسمعت من آخرين أن الدعاء فى ختام الصلاة .

وهل يمنع من الدعاء والشكر لله وجود الدورة الشهرية ؟

السيدة / ملكة محمد

الجواب :

الدعاء جائز من المصلى فى السجود وبعد التشهد الأخير . والدعاء يكون بالخير ، وبأى لفظ يعرفه الداعى ، لنفسه ولغيره من المسلمين ، الأحياء والأموات ، والدعاء نفسه عبادة مطلوبة من الإنسان ، وخير الدعاء ماكان فى هدوء أو فى خفية للبعد عن مظاهر الرياء . ولا مانع من الدعاء حين وجود الدورة الشهرية ويكون فى هذه الحالة بأدعية غير تلاوة القرآن كما تمنع الدورة الشهرية إقامة الصلاة، بخلاف الشهادة والشكر والتسبيح والاستغفار وطلب الخير من عند الله فهذا جائز معها .

قضاء الصلوات الفائتة :

السؤال

مرضت مرضا خطيراً فى العام الماضى لم أتمكن معه من أداء فروض الصلاة والآن وقد عادت صحتى مرة ثانية وأصبحت قادراً على أداء الصلوات بعونه تعالى فأريد قضاء الأوقات التى فاتتنى فى أيام مرضى كما وأنى أريد أداءها بطريقة الإيماء هذا مع الإحاطة بأننى لا أعرف عدد الأوقات الفائتة فما الحكم ؟

محمود محمد عبد الله

الجواب :

قضاء الصلوات الفائتة واجب شرعا ، ومتى كان المصلى قادراً على تأدية الصلاة من قيام وركوع وسجود فلا يجوز له أن يؤديها بالإيماء .

أما عدد الصلوات الفائتة فيكفى فيه غلبة الظن فيقضى بعضها فى كل يوم حسب إمكانه حتى يغلب على ظنه أنه قضى جميع ما فاته .

الاتجاه نحو الكعبة فى الصلاة :

السؤال :

لماذا تحدد اتجاهنا نحو القبلة أثناء الصلاة فى الكعبة ما دام الله سبحانه موجود فى كل مكان ؟

محمد فكرى عزمى محمد

الجواب :

قال الله سبحانه وتعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقال تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ».
وعلى ذلك فالتوجه إلى جهة الكعبة أمر تعبدنا الله تعالى به وعلينا امتثاله ولا يسأل عن حكمته .

الطريقة التى يتم بها الزواج :

السؤال :

اتفقت مع فتاة واعية رشيدة تبلغ من العمر ٢٥ عاما على الزواج وبعد الموافقة على الشروط حدث الآتى : وضعت يمينى بيمينها وقالت وافقت على الزواج من فلان ابن فلان على سنة الله ورسوله والنكاح منه وإننى أعاهده على أن أكون زوجة مخلصة والله شهيد على .
ثم وضعت يدها اليمنى على كتاب الله وقالت : « أقسم بالله العظيم ثلاث مرات أنى وافقت بكل إخلاص على الزواج من فلان زواجا حلالا على سنة الله ورسوله وأنا أكون له زوجة مخلصة أمينة والله شهيد على ما أقول » .
فهل يعتبر ذلك زواجا شرعياً وهل يحق لها الزواج من غيرى دون علمى ، وهل يحق لى مطالبتها شرعا ؟

عبد العزيز حسن مطاوع ـ السعودية

الجواب :

الزواج فى بعض المذاهب لابد فيه من ولى يتولى العقد عن المرأة ولا يصح لها أن تتولاه بنفسها كما فى الصورة المسئول عنها ، وفى بعض المذاهب كمذهب الإمام أبى حنيفة ـ رضى الله عنه ـ يصح للفتاة البالغة أن تتولى بنفسها عقد زواجها ولكن بشرط حضور شاهدين عدلين على العقد قبل الدخول .
وفى هذه الحادثة المذكورة لم يحضرها شهود كما لم يحصل من الرجل قبول ، فلا يعتبر ذلك عقداً مطلقاً ، وإنما هو وعد من الفتاة بأنها لا تتزوج غيره ، وهذا الوعد لا يلزمها الوفاء به ، فإذا رأت فى ذلك مصلحة فلها أن تحققه بصورة شرعية ، كما لها أن تعدل عنه وتكفر عن يمينها بالله وعلى المصحف كفارة يمين .

السؤال :

طلاق القاضى وحكمه :

فلسطينى تزوج بمصرية وأقام معها بمصر ثلاث سنوات ولسوء تفاهم غادر مصر إلى غزة فانتهز والد الزوجة هذه الفرصة ورفع الأمر إلى المحاكم يطلب الطلاق باعتبار أن الزوج لا يعلم له مكان مع أن الزوجة تعلم مكانه وهى لا تود الطلاق منه ، وفعلا أجابت

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المحكمة طلبه وطلقت عليه ، وبعد سنة من الطلاق حضر الزوج إلى مصر وهو لا يعلم بواقعة الطلاق على زوجته فواجهه الوالد بما حصل وطلب منه رد زوجته فردها بعد أن عقد عليها ، ثم سافرا معا إلى غزة فحصل سوء تفاهم وطلق الزوج زوجته طلقة على يد القاضي ثم ردها فى نفس اليوم ، وبعد مدة حصل سوء تفاهم فطلق زوجته للمرة الثالثة ثم ردها وهو يعتبر أن الطلاق الأول غير معتبر .

فهل اعتباره هذا صحيح فيكون له طلقة باقية أو غير صحيح فتبين الزوجة بينونة كبرى ؟

يوسف محمد عبد الواحد

الجواب :

الطلاق الذى أوقعه القاضى فى غيبة الزوج معتبر لأنه قد بنى على أسباب صحيحة عند القاضى .

وعلى ذلك يكون الزوج قد استنفذ مرات الطلاق الثلاث فتبين الزوجة بينونة كبرى لا تحل له حتى تتزوج غيره زواجا صحيحا بعد انقضاء عدتها منه ويدخل بها دخولا حقيقيا ، فإذا طلقها أو مات عنها وانقضت العدة حلت له بعقد ومهر جديدين برضاها .

وما ذكر من أنه ردها بعد الطلاق الثالث فهو أمر غير صحيح إذ العصمة قد انتهت .

الزواج من أرملة الأخ المتوفى :

السؤال :

نحن ستة إخوة والأخ الثالث منا نذر نفسه لخدمة الباقين حتى انتهاء تعليمنا الثانوى ، وفعلا تم ذلك وأتممنا التعليم واشتغل كل منا فى عمل ، ثم حدث أن مرض أخى المذكور بعد أن تزوج من قريبة لنا وحملت منه ، وفشلت كل المحاولات فى علاجه ويئس الطب من شفائه .

وتوفى أخى هذا وقبل موته أوصانى بما يأتى : « زوجتى وابنى برقبتك » وكانت زوجته قد وضعت طفلا ، وقد ترك ٦٠٠ دينار وأريد أن أقسم هذا المبلغ قسمين وأضعهما فى المصرف باسم الطفل وباسم أمه فهل هناك مانع شرعى ؟ كما أريد الزواج من زوجة أخى المتوفى حرصا على تربية ابن أخى بالإضافة إلى صيانتها فهل هناك مانع شرعى فى التزوج منها ؟

عبد الكريم إسماعيل عوير - الكويت

الجواب :

نجيب عن السؤال الأول بأن المبلغ الذى تركه هذا الأخ المتوفى يكون ميراثا شرعيا بين ولده وزوجته كغيره من ماله إن كان له مال .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فللزوجة الثمن فرضاً لوجود الفرع الوارث والباقي لابنه تعصيباً ما دام لم يترك غير هذا الابن كما ذكر في السؤال .

وعن الثاني بأن زواج السائل من أرملة أخيه لا مانع منه شرعا بل هو أولى ليرعى مصلحة ابن أخيه بشرط أن تخرج الزوجة من عدة الوفاة وهي بوضع الحمل إن كانت حاملا ، أو بمضي أربعة أشهر وعشرة أيام من تاريخ وفاة زوجها إن كانت خالية من الحمل .

هل يحرم حرمانه الابن العاق من الميراث

السؤال :

لي ابن عمره ٣٢ سنة متزوج ويعمل بالحكومة بمرتب متوسط ، ولي أبناء لم يبلغوا السن الذي يؤهلهم للاعتماد على أنفسهم وقد عانيت من قسوة الابن الأكبر إذ كان دائما على شجار معي ومع والدته حتى إنه يستعمل القسوة في معاملتنا إذا ما رفضنا إجابته إلى طلباته التي لا تنتهي ، وكلما عاملناه بعطف وحلم تمادى في إيذائنا واعتدى علينا بالضرب وكثيراً ما يهددنا بالقتل وقد تبرأت منه لسوء أخلاقه بعد أن ضقت ذرعا به ، وأريد أن أعاقبه بحرمانه من الميراث وكتابة أملاكي باسم أولادي الآخرين الذين في حاجة إلى رعاية لصغر سنهم . فما حكم الشرع في هذا ؟ .

أحمد محمد القمري

الجواب :

قسوة الولد على أبويه أو على أحدهما أو على أحد أفراد أسرته أمر لا يجوز بحال من الأحوال ولا يرضاه الله من الولد ، وهو بذلك مسيء إلى نفسه ، وإلى دينه ، ومحل سخط من الله في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك فحرمانه من التركة مخالفة لتشريع الله ولم يجعل الله عقوبة العبد بقطع رزقه أو ضياع استحقاقه في التركة لأنه سوف لا يستحقها إلا بعد وفاة المورث له سواء كان الأب أو الأم ، ومن الجائز أن يكون حين استحقاق نصيبه في الميراث مهذب النفس طيب الأخلاق حسن السلوك فلا مسوغ لمعاقبته بالحرمان ، ونظراً لوجود إخوة صغار يستحقون التربية فإنه يجوز للأب أو للأم أن يخص الأولاد الصغار بشيء من الملك دون هذا الولد الكبير الذي انتهت تربيته واستغنى عن والديه وذلك عن طريق الوصية في حدود ثلث المال تمييزاً لهم على أخيهم العاق عملا بقانون الوصية الذي أجاز الوصية للوارث دون توقف على رضا بقية الورثة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الصحف والكتب

اختيار وتعليق : عبد الرحيم فوده

الإسراء :

والعلم فى عصرنا الحاضر يقر هذا الإسراء بالروح ، ويقر المعراج بالروح ، فحيث تتقابل القوى السليمة يشع ضياء الحقيقة ، كما أن تقابل قوى الكون فى صورة معينة قد طوع « لماركونى » إذ سلط تياراً كهربائيا من سفينته التى كانت راسية بالبندقية أن يضىء بقوة موجات الأثير مدينة سيدنى فى استراليا .

وفى عصرنا هذا يقر العلم نظريات قراءة الأفكار ومعرفة ما تنطوى عليه ، كما يقر انتقال الأصوات على الأثير بالراديو . وانتقال الصور والمكتوبات كذلك مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال ، وما تزال القوى الكمينة فى الكون تتكشف لعلمنا كل يوم عن جديد ، فإذا بلغ روح من القوة ومن السلطان ما بلغت نفس محمد ، فأسرى به الله ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ليريه من آياته . كان ذلك مما يقره العلم ، وكانت حكمة ذلك هذه المعانى القوية السامية فى جمالها وجلالها ، والتى تصور الوحدة الروحية ووحدة الكون فى نفس محمد تصويراً صريحا ، يستطيع الإنسان أن يصل إلى إدراكه إذ هو حاول السمو بنفسه عن أوهام العاجلة فى الحياة . وحاول الوصول إلى كنه الحقيقة العليا ليعرف حقيقة مكانه ومكان العالم كله منها .

لم يكن العرب من أهل مكة ليستطيعوا إدراك هذه المعانى . لذلك ما لبث محمد أن أن حدثهم بأمر إسرائه حتى وقفوا عند الصورة المادية من أمر هذا الإسراء وإمكانه وعدم إمكانه . .

الدكتور محمد حسين هيكل
من كتابه حياة محمد

التعليق : يخيل إلى أنه لو عاش المرحوم الدكتور هيكل إلى الآن لوجد نفسه حيث وجد العرب من أهل مكة بإزاء قصة الإسراء فقد تقدم العلم فى السنوات القلائل الماضية بصورة لعلها لم تكن تخطر على باله حين كتب ما كتب ، فانتقل الإنسان بمادته وروحه إلى ما وراء الأرض وهواء الأرض

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وجاذبية الأرض من الفضاء . وهو يحاول الوصـــول إلى القمر ، وإلى غيره من الكواكب التى يقول فيها : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد » .

فإذا كانت هـذه هى قدرته مع ضعفه وهوان قـــدرته أمام الله الذى خلقه وسواه فكيف بقدرة الخالق الذى « يمسك السموات والأرض أن تزولا » .

لقد صدق الله إذ يقول « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » .

بل لقد كان شوقى أحكم وأعلم حين قال فى ذلك :

مشيئة الخالق البارى وصنعته
وقدرة الله فوق الشك والتهم

فضاء النفس :

فى النفس فضاء من الحيرة والشك والغموض ، أشبه بالتيه الذى لا حدود له ، والخراب الذى لا أنيس فيه .

ولا يقدر على اختراقه إلا من مرن على علوم ورياضات للنفس كالعلوم والرياضات التى مرن عليها رواد الفضاء بالجسم .

ولا مفر لنا نحن بنى الإنسان فى هـذه الأيام التاريخيـة التى بدأنا فيها أن نعبر بأجسامنا الفضاء الكونى حول الأرض على درب النجوم ، أن نعبر فى ذات الوقت فضاء النفس البشرية ، لندرك بقلوبنا ونتذوق بوجداننا ذلك الأمر الخطير الجليل الذى نفعله بعبور الفضاء الكونى ، فلا نكون آلات لا وجدان لها تركب آلات صماء عمياء لا وجدان لها ، ولا نرتفع إلى حدود عالم الملأ الأعلى بصغارات الملأ الأدنى وسفالاته وحماقاته ، فننقل إلى تلك الرحاب العلوية الساكنة الهادئة وحوش الشر والشك والقلق والإثم والاضطراب التى أكلت قلوبنا وأكبادنا وشقينا بها على الأرض فى الدهر الأطول الذى مضى ...

أما مركبنا لعبور فضاء النفس البشرية والوصول منه إلى ما وراءه من عالم الروح والملأ الأعلى الذى يعمر ما وراء ذلك الكون الكبير ذى الأبعاد والأرقام الفلكية والمقاييس الضوئية ... فهو الإيمان بسيد الكون وبما خص به ذلك الإنسان الذى نحمله جميعاً فى أجسامنا ، ونستوحيه فى أفكارنا ، ونبادله ما صح وما فسد من شئوننا .

الإنسان الذى رأينا من « عدسات » عقول أنبيائه وأصفيائه وقلوبهم نور الله خالق الطبيعة وسيد الكون ، وسمعنا من صحفهم وكتبهم وأحاديثهم عن ذاته العليا ، وعن الكون والحياة والإنسان .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وآنسنا بلقائه فى نواديهم ومعابدهم التى أقاموها للتعرف إليه والتعبد له .

الأستاذ عبد المنعم خلاف - من مجلة الرسالة

نصيحة لكل مؤمن :

يجب عليك أيها المؤمن الذى يريد تزكية نفسه بحفظها من الشر وجعلها خيرة وأهلا لسعادة الدارين ، أن تعنى بوقايتها من الشر قبل وقوعه وبمعالجتها منه بعد وقوعه ، كما تعنى بوقاية بدنك من الأمراض قبل وقوعها وبمعالجتها منها بعد وقوعها ، وأن تعلم أن لكل من أمراض النفس والبدن أسباباً ظاهرة وأسباباً خفية ، فالخفية من أمراض البدن أحياء دقيقة تملأ الأرض والفضاء ، يسميها الأطباء « الميكروبات » وما عرفوها إلا فى القرن الماضى ، فهم يرونها الآن بالمناظير المكبرة ، وأما الخفية من أمراض النفس فهى لا ترى ، ولذلك سماها الوحى الجنة والجن « بكسر الجيم » ومنشؤها الوسواس الذى تلقيه الشياطين فى خواطر الناس وهم شرار الجنة ، وقد علمنا الوحى أن لكل إنسان منا شيطاناً يوسوس له بالشر الذى يغويه ، فالذى يجب على كل منا اتقاء وسواسه بمراقبة خواطره ووزنها بميزان الشرع ليميز بين الحق والخير منها الذى يكون بهداية الدين وسلامة الفطرة الإلهية ، والباطل والشر الذى يكون بوسواس شياطين الجن والإنس ، فإذا نسى نفسه والتمييز بين خواطره غلب عليها الشر وكان من الغاوين ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

السيد محمد رشيد رضا

من تفسير سورة الناس

والنفس كالطفل :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه
إن الهوى ماتولى يصم أو يصم (١)
وراعها وهى فى الأعمال سائمة
وإن هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أن السم فى الدسم (٢)

البوصيرى

---

(١) يصم الأولى بضم الياء من أصمى الصيد بمعنى أصابه فوقع بين يديه ، ويصم الثانية بفتح الياء وكسر الصاد من وصمه يصمه بمعنى عابه ، وشده بسرعة ، وشقه ، والوصم ، والعار ، والعيب والصدع ، والفعلان جوابان للشرط فهما مجزومان بحذف حرف العلة فى الأول وبالسكون فى الثانى وحرك بالكسر للروى .

(٢) الدسم دهن اللحم والشحم .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فهرس

صفحة

٥١٣ الأدب بين الصعود إليه والهبوط به
للأستاذ أحمد حسن الزيات

٥١٦ براهين الإيمان من طريق براهين الشكوك
للأستاذ عباس محمود العقاد

٥٢١ التطهير فى الإسلام للأستاذ محمد محمد المدنى

٥٢٦ نعمة المال والبنين شقوة على المنافقين والكافرين
للأستاذ عبد اللطيف السبكى

٥٣٠ بين الشرق والغرب : نظرية الفروق الجنسية
فى ضوء الإسلام للأستاذ محمد رجب البيومى

٥٣٥ عبد القاهر الجرجانى وآراؤه فى الشعر والشعراء
للأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوى

٥٤١ المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام ـ ٦ ـ
للأستاذ عبد الرحيم فودة

٥٤٥ الإسلام وتحديد النسل
للأستاذ محمود الشرقاوى

٥٥١ ذو النون المصرى بين التصوف والأدب
للأستاذ عبد الجليل شلبى

٥٥٥ اللاحم والمطولات الإسلامية فى الشعر العربى
للدكتور سعد الدين الجيزاوى

٥٦٢ من معانى القرآن للأستاذ عبد الرحيم فودة

٥٦٣ مولانا أزاد والخلافة ـ ٣ ـ
للأستاذ عبد المنعم النمر

٥٦٩ نظرات فى التصوف والأدب :
الصوفية وعلاقتها بالزهد
للأستاذ محمد إبراهيم الجيوشى

٥٧٥ الخدمات الاجتماعية عن طريق الدين ـ ٢ ـ
للأستاذ أحمد العبراسى

٥٨١ بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية ـ ٨ ـ
للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

٥٨٦ شخصية المسلم ـ ٢ ـ
للأستاذ الحسينى أبو فرحة

صفحة

٥٩٣ قصة لسان العرب بين ابن منظور والنجارى
للأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعى

٥٩٨ حرية العقيدة فى الإسلام ـ ٢ ـ
للأستاذ حسن فتح الباب

٦٠٥ على الحدود . . . بين دولتين وحضارتين
للأستاذ فتحى عثمان

٦١١ الفكر فى الإسلام للأستاذ عباس طه

٦١٥ ما يقال عن الإسلام : دراسة للإسلام
المعاصر على الساحل الغربى لقارة إفريقية
للأستاذ عباس محمود العقاد

٦١٩ فى الحرم « قصيدة »
للأستاذ إبراهيم محمد نجا

٦٢٢ الكتب : الأعلام الشرقية تأليف
الأستاذ زكى مجاهد تقديم الأستاذ حسن جاد

٦٢٦ القاموس الإسلامى تأليف الأستاذ أحمد
عطية عوض ونقد الأستاذ محمد المخزوق

٦٣٠ أنباء وآراء : السيد / حسين الشافعى
يتحدث عن دور الأزهر فى الدعوة
الاشتراكية ـ جريدة ملايوية تفيد بتقدم
الجمهورية العربية فى مجال الثقافة الإسلامية ـ
الرعاية الاجتماعية لطلبة معهد الإسكندرية

٦٣٣ الفتاوى : للأستاذ إبراهيم محمد الأصيل
كيفية اعتناق الإسلام ـ الدعاء فى الصلاة
وهل يمنع الحيض منه ومن ذكر الله ـ
قضاء الصلوات الفائتة ـ الانحراف نحو الكعبة
فى الصلاة ـ الطريقة التى يتم بها الزواج ـ
طلاق القاضى وحكمه ـ الزواج من أرملة
الأخ المتوفى ـ هل يجوز حرمان الابن
العاق من الميراث .

٦٣٨ بين الصحف والكتب : الإسراء ـ فضاء
النفس ـ نصيحة لكل مؤمن ـ والنفس كالطفل

مطبعة الأزهر

الثمن أربعون مليما